جامعة الأزهر
كلية أصول الدين
والدعوة الإسلامية بالمنوفية

ما بعد العلمانية

والانعطاف الفكري بين انحسار العلمنة وتزايد موجات التدين في الغرب

تأليف الدكتور

عادل حمدي عباس أحمد

مدرس العقيدة والفلسفة بقسم الدراسات الإسلامية
كلية التربية جامعة الأزهر بالقاهرة

ملخص البحث

ما بعد العلمانية، والانعطاف الفكري بين انحسار العلمنة وموجات التدين في الغرب

إن ثمة تغيراً فكرياً ودينياً يعتري الغرب في الآونة الأخيرة، ويتزايد كل يوم عن سابقه، مما شكل انعطافاً ظاهراً يتجلى باطراد في انحسار العلمنة وتضاؤلها، وازدياد التدين بشكل ملحوظ، مما جعل الكثير من فلاسفة الغرب ومفكريهم أمثال: "هابرماس ـ كازانوفا ـ بيتر برغر ـ ستارك..." الخ يبحثون تلك الظاهرة ـ والتي اصطلح معظمهم على تسميتها (ما بعد العلمانية) ـ من جوانبها المختلفة؛ حتى وصلوا إلى نتائج مذهلة وصادمة، فضلاً عن تنبؤاتهم المستقبلية لتلك المجتمعات.... وكانت تلك هي الفكرة الأساسية لبناء هذا البحث، وأنها تعتمد بالأساس على أمرين:

الأول: تهافت العلمانية وانحسارها.

والثاني: النمو لحركات التدين الجديدة – وخاصة الإسلام –.

.... فجاءت مقدمة البحث لتسرد تلك الظاهرة بشكل عام، ثم خصصت الفصل الأول لبيان أسباب نشأة (ما بعد العلمانية) مثل: فطرية التدين، ودعم العلم للدين، وهزيمة العلمانية وإخفاقها في تلبية المطالب المتكاملة للإنسان والمجتمع.... الخ، ثم تناولت في الفصل الثاني (ما بعد العلمانية) كمرحلة واقعية، وكنوع من أنواع التأريخ لحقبة زمنية مبنية على آراء الكثير من فلاسفة الغرب وغيرهم، وإثراءً للموضوع وتوثيقاً له من وجهات نظر وفهوم متعددة، ثم تناولت في الفصل الثالث وضع النصرانية الحالي في الغرب وآراء متبعيها من المفكرين والعامة، وأيضاً وضع الإسلام، وحظ كل منهما من (مريدي التدين الجدد) بناءً على القوة الذاتية وأسباب الإقناع لكل منهما، ثم أنهيت البحث بخاتمة تتضمن أهم نتائج البحث، منها: أسباب نشأة (ما بعد العلمانية) كما ذكرت سابقاً، وأن العالم الغربي يعيش الآن مرحلة انعطاف فكري

خروجاً من العلمنة ودخولاً في التدين، وأن أكثر الأديان حظاً هو الإسلام، وأن المجتمعات الغربية تعيش الآن مرحلة جديدة مغايرة لعصور العلمنة هي (ما بعد العلمانية)، وأنها ستحدث تغيراً هائلاً في تكوينها الديني والثقافي والاجتماعي والأخلاقي، وستتغير مبادئ كثيرة وصفت دائماً بأنها أساسية وثابتة!!

الكلمات الافتتاحية: ما بعد العلماني ـ الانعطاف الفكري ـ انحسار العلمنة ـ التدين ـ التغير.

دكتور

عادل حمدي عباس أحمد

مدرس العقيدة والفلسفة ـ بقسم الدراسات الإسلامية ـ كلية التربية ـ جامعة الأزهر بالقاهرة

Post-secularism and the Intellectual Turn between the Decline of Secularism and the Waves of Religiosity in the West

ABSTRACT

There has been an intellectual and religious change in the West recently, which is increasing every day from its predecessor, which constituted an apparent reversal, the secularization has declined, and religiosity has increased significantly. … Etc, they are looking at this phenomenon - most of which has been termed 'post-secularism' - from its various aspects, until they have come to astonishing and rigorous results, as well as their future predictions for those societies.... That was the basic idea of building this research, And it basically depends on two things:

First, secularism is in decline.

The **second** is the growth of new religious movements - especially Islam.

The introduction of the research came to list this phenomenon in general, and then devoted the first chapter to explain the reasons for the emergence (post-secularism) such as: the innate religiosity, and the support of science for religion, defeat secularism and its failure to meet the integrated demands of man and society.... etc. Then in the second chapter (post-secularism) as a realistic stage, and as a kind of history of a time period based on the views of many philosophers of the West and others, and enrichment of the subject and documented from multiple points of view and concept, then in the third chapter dealt with the current situation of Christianity in the West and the views of its followers Thinkers and the general, and also the status of Islam, and each of them (new religious devotees) based on their own strength and reasons for persuasion, and then ended

the research with a conclusion containing the most important search results,: Among them: the reasons for the emergence of (post-secular) what I mentioned earlier, and that the Western world is now living a period of intellectual change out of secularization and entry into religiosity, and that the most fortunate religions is Islam, and that Western societies are now living a new phase different from the secular era is (post-secular), And it will make a huge change in the composition of religious, cultural, social and moral, and will change many principles, which have always been described as fundamental and fixed!!

Key Words: Beyond Secularism - Intellectual Detour - Decline in Secularization - Religion – Change.

Dr. Adel Hamdy Abbas Ahmed
Lecturer of Doctrine and Philosophy,
Department of Islamic Studies
Faculty of Education
Al-Azhar University in Cairo
University Email:
adelahmed78 @azhar.edu.eg

*** مقدمة:**

الحمد لله رب العالمين، حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه، حمداً يوافي نعمه ويكافئ مزيده وفضله، سبحانه لا نُحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه.

وصلي اللهم وسلم وبارك على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد،،،

إن من سنن الله تعالى في كونه؛ أن تتغير الأمور وتتبدل من حال إلى حال، ومن بين ذلك؛ "الأمم والشعوب"، فلا شك أنها دائمة التغير من عصر إلى عصر، ومن حكم إلى حكم، فمن ثراء إلى حاجة وعوز، ومن فقر وحاجة إلى غنىً وثراء، ومن جهل إلى علم وحضارة، ومن حضارة ورقي إلى تخلف ورجعية.... الخ.

ومثل ذلك: التدين والهداية، والكفر والإلحاد والضلال... فالأمم دائمة التقلب بين هذا وذاك إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها.

والأمم الغربية خير شاهد ومثال على ذلك، فهي في مجملها "نصرانية ـ علمانية"، في الغالب الأعم، وإن كانت العلمانية هي السمة المميزة والطاغية عن غيرها، بغض النظر عن التدين بالنصرانية.

فالغرب الأوربي بعد صحوته من ظلم وظلمات القرون الوسطى ـ التي كانت الكنيسة فيها تحكم مع طبقة الملوك والنبلاء والإقطاعيين ـ استيقظ في مطلع عصر النهضة على مبادئ جديدة ارتضاها منهجاً عاماً للحكم وإدارة شئون البلاد.

تلك المبادئ كانت تتسم بالحدة والصرامة وعدم قبولها للجدل، ومن ذلك: أن الكنيسة مكان خاص للعبادة فقط، وليس لرجالها التدخل في أي شأن من شئون الحكم، على

العكس مما كان من قبل في عصورها الوسطى، والتي سامت الناس فيها سوء العذاب!! بل إن سلطة الكنيسة لم تعد تتعدى جدرانها بأي حال من الأحوال.

ومن تلك المبادئ أيضاً: أن العلم هو الطريق الوحيد لإنقاذ البلاد من تلك الأكوام المتراكمة من الجهل والفقر والمرض، وأن يدفع المجتمع بكل ما أوتي من قوة في سبيل تطور العلوم والصناعة والإنتاج والتقدم في جميع المجالات.

والمبدأ الأهم بالنسبة لنا: أن تلك البلاد الأوربية لابد أن تقوم أنظمة الحكم فيها على مبادئ "علمانية" في دساتيرها وقوانينها جميعاً! وأن هذه المجتمعات يجب أن تكون "علمانية" في كل أمور حياتها، حتى في مسألة حرية الاعتقاد، فالكنيسة لم تعد أمراً ملزماً للفرد أن يتردد عليها إلا إذا شاء هو ذلك، وكونه يعتقد بصحة النصرانية أو لا يعتقد... يهتم بأمورها وطقوسها أو لا يهتم... تلك أمور أصبحت غير مهمة على الإطلاق! فالمهم لتلك المجتمعات هو تأسيسها على "العلمانية"، وما يتلو ذلك من حرية العلم، وحرية العبادة والتدين، وحرية اختيار الحكام.... الخ.

ومرت تلك القرون النهضوية والحديثة، وأوربا تزداد علماً وحرية وتقدماً، في الوقت الذي كنا نحن فيه في درجة أقل من أن نقارن بهم، بسبب بعدنا عن عقيدتنا وأخلاقنا! ولعل تلك "مفارقة" يجب الإشارة إليها، أنهم لما ابتعدوا عن دينهم، تقدموا ونمت حضارتهم، ولما ابتعدنا نحن عن ديننا، تخلفنا واندثرت حضارتنا!! ولا عجب فالإسلام دين حضارة، يبني مجتمعاً مؤمناً على الحقيقة، ويصنع له نظامه الاجتماعي وحضارته وعلمه وتقدمه، بخلاف دين الغرب الذي صنع العصور الوسطى المظلمة والمتخلفة!

وحينما قررت الدول الأوربية في القرن التاسع عشر أن تقوم باحتلال دول الشرق – وخاصة المنطقة العربية الإسلامية – زاد إحساسها بفائض القوة وبأهمية العلم والصناعة– وخاصة الآلات العسكرية –، حيث تمكنت من السيطرة على تلك الشعوب "غير المتقدمة" ونهب ثرواتها، وفرض ثقافتها عليها إلى حد كبير، وما تلا ذلك من

الدخول في الحرب العالمية الأولى ١٩١٤/١٩١٨م، والحرب العالمية الثانية ١٩٣٩/١٩٤٥م، والوقوع في ويلات وخسائر عظيمة.

وكانت تلك المعارك الضارية بمثابة المحفّز الأكبر للاهتمام بالعلم والصناعة أكثر من أي شيء آخر، فخرجت أوروبا من الحرب العالمية الثانية أكثر نهماً وشراسة على الإنتاج المادي والصناعة والتقدم في كافة مجالات الحياة، وخاصة التكنولوجيا الحديثة والإلكترونيات، حتى وصل الحال بهم إلى ما هم فيه الآن من تقدم مذهل في تلك الأمور جميعها!

وأصبح الغرب الآن يتباهى صباح مساء بنتائج تلك الثورة العلمية الهائلة، والتي نبتت وترعرعت واكتملت في أحضان "العلمانية" بلا شك.

فالعلمانية تمثل منهجاً حتمياً ضرورياً لا يقبل الجدل في هذه القرون الأخيرة ومنذ بدايات عصر التنوير.

ولكن ثمة مشكلة كبرى؛ بل مشكلات كثيرة أعيت الغرب عن حلها؛ ففي الوقت الذي تقدَّم فيه الغرب في الجانب المادي تقدماً مذهلاً؛ أخفق في الجوانب الإنسانية والنفسية والاجتماعية بشكل يثير الخوف والرعب على حاضر ومستقبل تلك المجتمعات! وأصبح الغرب الآن يئن ويتألم من قسوة تلك المشكلات التي أرهقته ردحاً من الزمن، ولا زالت، بل الأخطر من ذلك أن تلك المشكلات تزداد وتتنوع يوماً بعد يوم.

فالغرب يعاني من الكثير والكثير من تلك الأمراض التي لا سبيل للشفاء منها في ظل العلمنة الطاغية التي يعيشها؛ مثل: القلق، والتوتر، والسأم، والملل، والكبت، والاكتئاب، وجميع الأمراض النفسية التي تبلغ غايتها في كثير من الحالات، فتسبب الانطواء والانتحار، فضلاً عن الأمراض الاجتماعية والأخلاقية من القتل والاغتصاب، وزنا المراهقين والمراهقات، وحمل المراهقات، وكثرة أولاد السفاح، مع قلة الزواج والإنجاب الشرعي، والتفكك الأسري، وانهيار الأخلاقيات، وإدمان الخمور والتدخين

والمخدرات، وتقنين الرزائل، والغياب التام للمبادئ والأصول الاجتماعية والأخلاقية... والأخطر من ذلك: معاناة الغربيين الشديدة من الفراغ العقدي والفكري، وكثرة الإلحاد، واللاأدرية، في ظل قصور وضعف شديد يعتري النصرانية! خاصة مع تحرر العقل الغربي وعدم قبوله لعقائد تناقض ذلك العقل، مثل: "التثليث ـ الفداء ـ الصلب ـ تأليه المسيح"، فضلاً عن نتائج علومه الحديثة التي تُكذِّب كثيراً من نصوص الأناجيل، وتنعتها بالبشرية بلا شك!

كل هذه الإشكاليات وغيرها، مع التقدم المادي، وفي ظل "علمانية" لا تعرف إلا المنفعة والمصالح المادية، شُكِّل هذا الإنسان الغربي الذي يعاني أشد المعاناة من داخله، وإن كان ظاهره يوحي بغير ذلك.

فالمطالب العقدية والنفسية والاجتماعية أهم بكثير من الجانب المادي الذي تفوق فيه الغرب، وأهمل هذه المطالب، وترك الإنسان خالياً بنفسه، تذروه الرياح كيف تشاء!.

إن ثمة احتياجات عقدية وأخلاقية ونفسية واجتماعية لابد منها للإنسان لكي يحيا حياة صحيحة متسقة، ومتكاملة، ومتوازنة، لكي يحيا في دنياه مطلاً على آخرته، فيعلم أن الله تعالى لم يخلق الخلق عبثاً، وأن كل شيء في هذه الدنيا خُلق بقدر، وأن الدنيا دار عمل وابتلاء، والآخرة دار حساب وجزاء، فتستقر نفسه، ويهدأ روعه، وتستقيم جوارحه، ويمتثل لأمر ربه، فيسعد في دنياه وأخراه، وتلك هي الغاية التي يسعى إليها كل عاقل وفطن.

وربما كانت سياسات القمع والظلم التي اتبعتها الكنيسة في العصور الوسطى، مع الضعف الشديد الذي اعترى النصرانية وتناقضاتها الكثيرة مع العقل والعلم، قد شكلا معولاً كبيراً من معاول هدم الدين بالكلية، ونبذ الروحانيات وكل ما يتعلق بالقلوب، والاهتمام أولاً وآخراً بالجانب المادي والحريات والعلم التجريبي فقط، مما أورث العالم الغربي أمراضاً – كهذه التي ذكرتها سابقاً – فتكت به، وأصبح يعاني من العجز والخور والشيخوخة، وهو لازال في قمة شبابه المادي والعلمي!!.

ولكن التدين ومعرفة الإله سبحانه، أمر مركوز في النفس الإنسانية، مفطورة عليه في أصل خلقتها، فتنبعث هذه الفطرة في الإنسان من حين لآخر مطالبة بإعمال العقل والفكر في هذا الشأن، وتميل وتحنو إلى "تدين" طالما أحست باحتياجها إليه، خاصة بعد تلبية جميع احتياجاتها المادية على الوجه الأكمل.

ولا شك أن العالم الغربي قد بلغ الغاية في التكنولوجيا والعلوم والماديات، وأن الإنسان هناك قد استوفى جميع حقوقه في التعليم والصحة والحرية... الخ. ولكنه الآن يبحث – وعن كثب – عن حق آخر غير تلك الحقوق، يبحث عن حق أصيل لم تكفله الدولة، ولم تهتم به العلمانية على الإطلاق، بل نبذته وأهملته، وحاربته وحاصرته، وسعت جاهدة في محوه من دنيا الناس بالكلية!!

إنه حق "التدين"، حق البحث عن الإله، حق البحث عن الحقيقة، حق معرفة الوجود، ولماذا وُجدنا؟ وإلى أين المآل والمصير؟! إلى غير ذلك من الأسئلة التي تلح على الإنسان من أجل أن يجد لها حلاً.

إن الغرب في الآونة الأخيرة قد سئم من العلمنة والمادية الطاغية، التي صنعت منه آلة لا قلب لها!، وجعلت حياته ضرباً من الروتين الممل! وأورثته مشكلات نفسية وأخلاقية واجتماعية لا آخر لها!.

فها هو الغرب ـ وكما تشير الدراسات ـ يتجه إلى التدين من جديد، هروباً من ذلك المأزق الخطير الذي أوقعته فيه العلمنة بطغيانها وسلطتها الكبيرة ومع ذلك الطغيان والسلطة الكبيرة للعلمنة، إلا أنها لم تستطع أبداً أن تنزع التدين من نفوس فطرها الله (ﷻ) على ذلك.

*** الدراسات السابقة:**

فشير كثير من الدراسات والأبحاث الغربية في الفلسفة والمذاهب الفكرية وعلم الاجتماع؛ أن العقود الأخيرة شهدت نمواً دينياً كبيراً في الأوساط الغربية كافة، وأن الغرب ينعطف بقوة ناحية التدين، وأن العلمانية بدت باهتة وضعيفة وغير مقنعة كما

كانت من قبل، وأن تلك الأمور أصبحت تمثل ظاهرة تستحق أن تُبحث عن كثب، وبدقة، وبأهمية بالغة، لأن العالم الغربي الآن يتغير حقيقة، وأن ثمة تاريخاً جديداً يُكتب للغرب الآن، وأن التنبؤات بمستقبل الغرب القريب أصبح أكثر تفهماً وانسجاماً مع الظاهرة الجديدة، وأكثر تأثراً بها من أي شيء آخر.

وهذا ما نفهمه من مجرد الإطلالة السريعة على عناوين بعض هذه الأبحاث والمقالات الغربية، مثل:

* هذا سبيلنا إلى مجتمع عالمي "ما بعد علماني".	رودني ستارك.
* الأديان العامة في العالم الحديث.	خوزيه كازانوفا.
* اللائيكية والمجتمع "ما بعد العلماني".	روخيه مونجو.
* محاولة تعريف "ما بعد العلماني".	كريستينا شتوكل.
* جدلية العلمنة ـ العقل والدين.	يورغن هابرماس، جوزف واتسنغر.
* هل نسير إلى الهاوية.	ادغاز موران.
* ثورة الفطرة ضد ديكتاتورية العلمانية.	كلود أندريه.
* زوال العلمنة عن العالم.	بيتر برغر.

وغير ذلك كثير من الأبحاث والدراسات والمقالات الغربية التي أجمعت على أن مرحلة جديدة يعيشها الغرب الآن، وتظهر بعالمها يوماً تلو يوم، تلك هي مرحلة "ما بعد العلمانية".

فالعلمانية اليوم تعيش في مرحلة "الشيخوخة"، وأن ثمة مرحلة شابة تأخذ مكانتها وسلطتها شيئاً فشيئاً بقوتها الذاتية من داخل الأفراد أنفسهم بعيداً عن سلطة الدولة والقانون والأنظمة العلمانية التقليدية.

تلك هي مرحلة التدين الجديدة، أو ما سميت بـ "**ما بعد العلمانية**".

ومن هنا أخذ هذا الموضوع أهميته، واستحقاقه للبحث والدراسة.

أضف إلى ذلك أن "الإسلام" بعقيدته وشريعته، يمثل دوراً فاعلاً وحيوياً في تلك المنظومة الجديدة – وبشهادات الغربيين أنفسهم – مع الاحتفاظ بكونه خياراً رئيسياً لتدين الغرب في الآونة الأخيرة وحتى الآن.

وهو ما أضفى روح المنافسة والمقارنة بينه وبين النصرانية على أرضها وبين أتباعها!! فضلاً عن إثارة النزعة العقلية المتحررة في تقييم واختيار العقيدة المناسبة، والأكثر قبولاً وتوافقاً مع العقل المجرد ونتائج العلوم الحديثة.

ولا شك أن صورة الإسلام في الغرب لا زالت مشوهة، ومؤسسة على جملة كبيرة من الافتراءات والأكاذيب من قِبل المستشرقين وبعض مفكري الغرب، وأن تلك الصورة يجب أن تُصحح تزامناً مع هذه الصحوة الدينية التي يعيشها الغرب، ويبحث فيها عن الرجوع إلى التدين ونبذ العلمانية.

والحقيقة أن العقيدة الإسلامية تنتشر في الأوساط الغربية بقوتها الذاتية، وبصورة تدعو للتفاؤل، على الرغم من الجهود المضنية التي يبذلها بعض الغربيين ـ وخاصة المستشرقين والإعلاميين ـ للصد عن الإسلام وتشويه صورته، وتشويه صورة المسلمين أيضاً، فللإسلام مستقبل باهر في الغرب، وبلسان الغربيين أنفسهم. وصدق الله تعالى: ﴿ **يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ** ﴾ [التوبة: ٣٢].

فهذه المرحلة "ما بعد العلمانية" نحن شركاء فيها "بالإسلام" شئنا أم أبينا، ولا شك أن نتائجها سيكون لها تأثيرات بالغة على الشرق الإسلامي، فضلاً عن الغرب نفسه. فنجد أن العلمانية تسير بخطى مسرعة نحو الضعف والكمون، وأن التدين يسير بنفس الخطى المسرعة نحو الظهور والقوة والانتشار.

ولابد لنا كباحثين ومتخصصين في العقائد والأديان والتيارات الفكرية، أن نواكب هذه الفترة، ونشاهد تلك الحركة الجديدة، وندرس باهتمام مرحلة الانعطاف الفكري والديني التي تشهدها الأوساط الغربية.

فهذه الأسباب هي ما دعتني إلى دراسة وبحث هذا الموضوع.

بعدما استخرت الله (ﷻ)، واستشرت أساتذتي وزملائي في هذا الشأن، وقد بذلت جهدي قدر استطاعتي لإخراج هذا البحث في أبهى صورة ممكنة، بعد اعتمادي على الله تعالى، ودعائي له وتضرعي إليه بأن يوفقني ويهديني إلى الحق والخير، وأن يجعل هذا العمل نافعاً للإسلام والمسلمين.

فقد قمت بتقسيم البحث إلى: مقدمة، وثلاثة فصول، وخاتمة:

* **فالمقدمة:** تلك التي بين أيدينا الآن، وتشتمل على نبذة مختصرة عن الموضوع، وأهميته، والأسباب الداعية لدراسته، والدراسات السابقة والتي ذكرت منها البعض..

* **والفصل الأول:** عن أسباب نشأة "ما بعد العلمانية".

* **والفصل الثاني:** عن مرحلة "ما بعد العلمانية".

* **والفصل الثالث:** عن الحديث عن علاقة "النصرانية والإسلام" بمرحلة "ما بعد العلمانية".

* **والخاتمة:** تحتوي على أهم نتائج البحث، وأهم التوصيات والمقترحات.

والله (ﷻ) أسأل أن يجنبنا الزلل في الاعتقاد والقول والعمل، وأن يوفقنا لِمَا يحب ويرضى، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

الفصل الأول
أسباب نشأة (ما بعد العلمانية)

تمهيد

*** حول مفهوم العلمانية:**

يجدر بنا قبل الخوض في معترك هذا البحث أن نشير في عجالة إلى مفهوم العلمانية، ولست مبالغاً إن قلت أن مفهوماً أو مصطلحاً علمياً كان أو فلسفياً أو دينياً، لم يُثر خلافاً كبيراً مثلما أثار مصطلح (**العلمانية**)، وخاصة في الحقل الفلسفي لدى العرب والمسلمين، فضلاً عن موطنه الأصلي لدى الغرب.

ولذا فقد آثرت الاختصار قدر المستطاع حتى لا تضيع الحقيقة وسط هذا الكم الهائل من التعريفات والآراء والترجيحات الشخصية.

يقول الدكتور عبد الوهاب المسيري: ويظن كثيرون أن مصطلحاً على هذه الدرجة من الأهمية والمحورية والزيوع، لابد أن يكون واضحاً تمام الوضوح، محدد المعاني والأبعاد، وعلى هذا دُبجت المقالات، ودارت النقاشات، وعُقدت الندوات، ونشرت الدراسات التي تناولت القضية "بكل موضوعية"، وظن الجميع أنهم أدوا واجبهم، وأراحوا ضمائرهم! ولكن وضوح مصطلح "العلمانية" أمر بعيد كل البعد عن الواقع، كما يُلاحظ في الآونة الأخيرة أن ثمة دراسات بدأت تظهر في العالم الغربي تتناول هذا الموضوع من منظور جديد، الأمر الذي يزيده إبهامًا!![1].

ولعل السبب في ذلك التنوع والاختلاف حول مفهوم "العلمانية" يكمن:

<u>أولاً</u>: في "النشأة"، حيث نشأت العلمانية كرد فعل ضد الطغيان الكنسي الأوربي في عصوره الوسيطة – وردود الأفعال دائماً ما تختلف طبقاً (للظروف والملابسات والحيثيات) ـ واستمرت هذه الحالة سنوات عديدة حتى استقرت العلمانية منهجاً للغرب، يحوي بين طياته جوانب عديدة من التنوع والاختلاف.

(١) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، د/ عبد الوهاب المسيري جـ١/صـ٥.

وثانياً: الاختلاف الواسع جداً حول المراد من علمنة الدولة أو الأفراد، طبقاً لثقافة الشعوب وأفكارها، ومستواها الاقتصادي، والاجتماعي، والسياسي، وقبل كل ذلك "علاقتها بالكنائس ورجالها" فضلاً عن مستوى التدين والالتزام العقدي لديهم، والأهم من ذلك، تلك المسافة المراد وضعها بين العلمانية ومنهج الدولة من ناحية، والدين والكنيسة ورجال الدين من ناحية أخرى، والتي تُحدد طبقاً للظروف السابق ذكرها.

يقول خوزيه كازنوفا عن صعوبة تعريف العلمانية: (..... المفهوم نفسه متعدد الأبعاد للغاية، ومتقلب بشكل ساخر في دلالاته الضمنية المتناقضة، ومثقل بدلالات متنوعة تراكمت عبر مساره التاريخي...)[١].

إلى غير ذلك من الأسباب التي يطول المقام بذكرها، والتي قد يتضح بعضها من خلال ذكر بعض التعاريف لهذا المفهوم.

يقول الدكتور عبد المنعم الحفني في معجمه الفلسفي عن العلمانية: ((العلمانية من (العَلَم) بمعنى العالم، فهي العَلمانية (بفتح العين)، والعلماني بخلاف الديني أو الكهنوتي، وعندما بدأ التنوير في أوربا كانت من أولى متطلباته: فصل الدين عن الدولة، وأن يكون الناس جميعاً لائيكيين(*) أو علمانيين، أي ليسوا أخرويين، والأخروي: هو الذي يعمل في الدنيا للآخرة، بينما العلماني يعمل للدنيا، وغايته هذا العالم وليس الآخرة....وربما اشتقاق "عِلمانية" (بكسر العين) من (العِلم)، فقد قام التنوير على العلم، أي علم الدنيا وليس علم الدين....))[٢].

فالعلمانية إما أن تكون نسبة (للعالم)، أو تكون نسبة (للعلم)، وذلك الأخير أضعف، ولذلك عبر بقوله: وربما يكون.....

---

(١) الأديان العامة في العالم الحديث، خوزيه كازانوفا، ترجمة / قسم اللغات الحية والترجمة، جامعة البلمند، صـ٢٦.

(*) اللائيكية تعني العلمانية الفرنسية.

(٢) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، د/ عبد المنعم الحفني صـ٦٢.

يقول الدكتور مراد وهبه في معجمه الفلسفي أيضاً عن العلمانية: ((لفظ علمانية في اللغة العربية مشتق من (عَلْم) أي العالم، في اللغة الأجنبية مشتق من اللفظ saeculum أي العالم،.... وأرفض تعريف العلمانية بأنها (فصل الدين عن الدولة)، لأن هذا الفصل معلول للعلمانية، أما علة الفصل فهو: التفكير في النسبي بما هو نسبي، وليس بما هو مطلق، وهذا هو تعريفي للعلمانية...))[١].

وعلى ذلك فالعلمانية تنسب (للعالم) فقط، وليس لها صلة بالعِلم أو غيره، وبتلك النسبة جاء تعريف مجمع اللغة العربية في "معجمه الوجيز" على النحو التالي: العَلْماني (عند الغربيين المسيحيين): من يُعْنَى بشؤون الدنيا، نسبة إلى العَلَم بمعنى العالم، وهو خلاف الكهنوتي[٢].

وتوجد أيضاً في المعاجم العربية معاني مختلفة للعلمانية، مثل: ((الدنيوية: أي الإيمان بأنها هي الحياة الدنيا ولا يوجد سواها، والزمنية: بمعنى أن كل الظواهر مرتبطة بالزمان وبالدنيا، ولا علاقة بها بأية "ماورائيات"))[٣].

ويعرض المفكر الألماني "لاري شاينز" ستة تعريفات للعلمانية كالآتي:

١) أفول الدين.

٢) التناغم مع هذه الدنيا.

٣) تجرد المجتمع من قيود الدين.

٤) تحول المعتقدات والمؤسسات الدينية.

٥) سلخ القدسية عن العالم.

٦) السير من المجتمع القدسي إلى المجتمع العلماني[٤].

---

(١) المعجم الفلسفي، د/ مراد وهبة صـ٤٨٢.

(٢) المعجم الوجيز . مجمع اللغة العربية صـ٤٣٢.

(٣) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، د/ عبد الوهاب المسيري جـ١/صـ٦١.

(٤) لاري شاينز، مفهوم العلمنة في البحوث التجريبية، مالكوم هميلتون، علم اجتماع الدين صـ٢٨٩، نقلاً عن: ما بعد العلمانية، محمود حيدر صـ٤٠، وانظر: العلمانية تحت المجهر، د/ عبد الوهاب المسيري، د/ عزيز العظمة صـ٢٥١.

ويعرفها "لوران غريزون" بقوله: ((تشكلت كلمة "علمانية" انطلاقاً من الصفة "علماني" والتي تتعلق بفصل المجتمع المدني عن المجتمع الديني، أي بعبارة أخرى: رفض اعتماد السلطات الدينية كمرجع في دولة "تضمن حرية الاعتقاد"))[١].

ويعرفها "بيتر بيرغر" بقوله: ((نقصد من العلمانية: تلك الأعمال التي تتم بوساطتها تحرير مختلف المكونات الاجتماعية، وانتشال الأصول الثقافية من سلطة المراكز والمكونات الدينية))[٢].

ويعرفها الدكتور محمد البهي فيقول: ((العلمانية تنسب ـ على غير قياس ـ إلى العالم، أو العالمية Secularism وهي نظام من المبادئ والتطبيقات يرفض كل صورة من صور الإيمان الديني والعبادة الدينية، هي اعتقاد بأن الدين والشئون الإكليريكية "اللاهوتية والكنسية" والرهبنة لا ينبغي أن تدخل في أعمال الدولة.... والعلماني secular هو ما يتعلق بالحياة الدنيوية المؤقتة، وليست له قداسة مقابل الشئون الكنسية...))[٣].

ويعرفها الدكتور المسيري بتعريفين: أحدهما جزئي والآخر شامل، فيقول: ((العلمانية الجزئية: فصل الدين عن الدولة، والعلمانية الشاملة: فصل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية عن الحياة في جانبيها العام والخاص))[٤].

وقيل: ((مفهوم العلمانية: هو فصل الدين عن الدولة أو عن الحياة، ولا تعني ـ كما يظن البعض ـ إنكار الدين، فذلك هو الإلحاد أو الكفر، ولكنها تعني حصر دائرته

---

(١) حكاية العلمانية، الجذور التاريخية والتحديات، لوران غريزون، ترجمة / منار درويش، فصلية الاستغراب صـ٣٤١، عدد ٢.

(٢) ما بعد العلمانية في فكر يورغن هابرماس، آرمان زارعي، ترجمة / أسعد الكعبي، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ١٧٣.

(٣) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، د/ محمد البهي صـ١٦.

(٤) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، د/ عبد الوهاب المسيري جـ١/صـ٦.

وحصر سلطانه داخل جدران الكنيسة فلا يتعداها إلى المجتمع أو الدولة، وعلى ذلك فيمكن في ظل العلمانية ممارسة الشعائر الدينية، لكن لا يمكن أن يمتد سلطان الدين إلى المجتمع أو الدولة))[1].

ويتبين مما سبق ذكره من تعريفات للعلمانية، بعض الملاحظات:

١) **أصل اشتقاقها:** إما من (العَلْم) بمعنى العالم، وإما من (العِلْم).

وعلى الاشتقاق الأول: اتفق (معظم) الباحثين والمفكرين والفلاسفة في الشرق والغرب.

وأما عن الاشتقاق الثاني: فيلاحظ أنه ضعيف في نِسبة العلمانية إليه، ولذا فقد أعرض عنه كثير من الباحثين والفلاسفة المحدثين، ومن ذكره منهم فهو على سبيل التضعيف، أو على سبيل الثنائية مع الاشتقاق الأول، فضلاً عن كونه يحل ثانياً دائماً، لا أولاً.

٢) **الاختلاف حول معنى "العلمانية":** يمثل حقلاً فكرياً واسعاً يصعب على الباحث تداركه كلياً بطريقة قطعية.

فمن المعاني والتفسيرات الواردة حول مفهوم "العلمانية" نجد:

* خلاف الدينية أو الكهنوتية.
* فصل الدين عن الدولة.
* أن يكون الناس جميعاً لائيكيين أو علمانيين، أي ليسوا أخرويين.
* علم الدنيا، وليس علم الدين.
* التفكير في النسبي بما هو نسبي، وليس بما هو مطلق.
* الاعتناء بشئون الدنيا.

---

(١) الاتجاهات الفكرية المعاصرة، د/ علي جريشة صـ٨٣، وانظر: أعداء الإسلام ووسائل التضليل، د/ جابر قميحة صـ٩٨.

* الدنيوية.
* الزمنية.
* أفول الدين.
* التناغم مع هذه الدنيا.
* تحرر المجتمع من قيود الدين.
* تحول المعتقدات والمؤسسات الدينية لأخرى دنيوية.
* نزع أو سلخ القدسية عن العالم.
* التحول من مجتمع المقدسات الدينية إلى مجتمع الدنيوية.
* فصل المجتمع المدني عن المجتمع الديني.
* رفض أو منع مرجعية السلطة الدينية للدولة، واستبدالها بالقانون الوضعي.
* تحرير جميع المكونات الاجتماعية والثقافية من سلطة المراكز الدينية.
* نظم ومبادئ وتطبيقات قائمة على رفض جميع صور الإيمان، وعزلها عن التدخل في نظام الدولة.
* معنى جزئي: (فصل الدين عن الدولة، ومعنى شامل: فصل القيم الإنسانية والأخلاقية والدينية عن الحياة في جانبيها العام والخاص).
* حصر دائرة الدين، وحصر سلطانه داخل جدران الكنيسة بعيداً عن الدولة.

وغير ذلك الكثير والكثير من التفسيرات والتعريفات للعلمانية، أعرضت عن ذكرها لئلا يطول بنا المقام عند هذه النقطة. خاصة وأن معظمها يرجع إلى رفض الدين، والعناية بكل ما هو دنيوي.

ولذلك فنحن نلاحظ أن معظم التعريفات تدور في فلك المسميات التالية: (الدين – الدنيا – الكنيسة الزمن التحرر التحول الرفض الفصل الحصر العزل).

فالمفهوم العام للعلمانية: يتمثل في فصل وعزل كل ما يتعلق بالدين المسيحي (الاعتقادات – التشريعات – الكنائس – رجال الدين...) عن الدولة (الحكومة –

القانون والأنظمة الوضعية – مناهج التعليم والصناعة.... الخ)، وحصر السلطة الدينية داخل الكنيسة فقط، وتحرير المجتمع المدني من جميع آثار السلطة الدينية، وتحويله إلى مجتمع دنيوي بحت، لا يهتم إلا بشئون الدنيا، في ظل القوانين والأنظمة الوضعية المتغيرة حسب مصالح المجتمع والأفراد، مع إتاحة التعبد والذهاب للكنائس والحرية الدينية والإلحاد، شرط ألا يتعرض المجتمع المدني العام (العلماني) لأي تأثير أو ضرر.

فالعلمانية: منهج للحياة العامة مبني على أسس لا يمكن التخلي عنها:

* تنحية الدين جانباً.

* الاهتمام بالدنيا فقط، وسن القوانين والأنظمة التي تساعد على الوصول لأفضل معيشة.

* الحياة الآخرة والاهتمام بها أمر شخصي تماماً لا يعني المجتمع والدولة في شيء.

* الحرية الدينية مكفولة للجميع حتى الوصول لدرجة الإلحاد، طالما لم تضر بالمجتمع المدني.

تلك هي العلمانية التي جاءت كردة فعل عنيفة جداً ضد الطغيان الكنسي، الذي دام لقرون طويلة، ذاقت أوربا والعالم الغربي خلالها ويلات الجهل، والفقر، والمرض، والتعذيب، والاستبداد، ونهب الأموال والثروات، وازدراء العلم والعلماء، بل وتعذيبهم وقتلهم.

أسباب نشأة "ما بعد العلمانية"

*** تمهيد:**

من سنن الله تعالى في خلقه؛ أفول الحضارات العظيمة، وقيام حضارات مثلها، أو أخرى أعظم منها، أو أقل منها، وزوال الممالك، وقيام ممالك أخرى، مثلها، أو أعظم منها، أو أقل منها... وكذلك انتشار أفكار ومذاهب وفلسفات، ثم أفولها وزوالها، ثم انتشار أفكار ومذاهب وفلسفات أخرى، ثم أفولها وزوالها.... وهكذا؛ على وفق حكمته تعالى وإرادته، تلك الأمور مُشاهدة ومُعاينة لكل صاحب بصيرة، ولكل من أمعن النظر في قراءة التاريخ؛ حديثة وقديمة في الشرق والغرب على السواء.

وإني لآتسآل:

– ماذا تبقى من الحضارات القديمة؟ الحضارة المصرية القديمة، والحضارة الصينية، والحضارة الهندية، والحضارة الإغريقية، والبابلية، والآشورية، والفينيقية..... الخ.

لم يبق منها سوى الآثار، وبعض الأفكار التي – نادراً – ما يؤخذ بها أو يستفاد منها، ولم يبق لورثة هذه الحضارات سوى التفاخر بها حيناً، والتباكي عليها حيناً آخر.

– ماذا تبقى من الديانات السماوية؟ (اليهودية والنصرانية) لقد حُرفتا تحريفاً لا يستوعبه عقل! بأياد بشرية خبيثة عبثت بوحي الله تعالى المنزه عن الخطأ، فصالت وجالت يميناً وشمالاً، افتراءاً وكذباً على الله تعالى ورسله الكرام، حتى لم يتبق لأصحابها سوى تلك النصوص المحرفة والمفتراة على الله تعالى ورسله، حتى أصبح بعض الأوربيين يخرج من النصرانية إلى غير دين!، لعدم قناعته بالنصوص التي بين يديه، في عصر العلم ـ الذي غالباً ما يكذب تلك النصوص ـ الذي ملأ الآفاق.

حقيقة لم يتبق للبشرية سوى "الإسلام" دين الله الحق، ووحيه المنزه عن العبث والتحريف، الذي تكفل الله تعالى بحفظه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]، وسيأتي الحديث عن ذلك مفصلاً في حينه إن شاء الله تعالى.

فالعالم دائم التغير على كل حال؛ أفكاره، فلسفاته، اتجاهاته، مذاهبه، ولعلنا الآن بصدد الحديث عن تغير جديد في العالم الغربي.

ولقد بات مؤكداً أن أوربا عاشت أحلك عصورها في تلك الحقبة المسماة "العصور الوسطى" أو "القرون الوسطى" حتى مطلع القرن السادس عشر الميلادي وبزوغ عصر النهضة الأوربي، أواخر القرن السادس عشر وأوائل القرن السابع عشر، وتبلور الكيان الأوربي في ثوبه الجديد المفعم بالعلم المادي التجريبي والعلمانية، ونبذ الدين بكل صوره، وحصر دور الكنيسة داخل جدرانها، وحصر المعتقدات الدينية داخل صدور أصحابها.. كما سبق الكلام والشرح في أكثر من موقع.

وظلت العلمانية مسيطرة تماماً على الأجواء الأوربية خاصة، وعلى الغرب عامة، حتى أواخر القرن العشرين... وربما يتبادر سؤال إلى الأذهان مفاده: وهل انتهت العلمانية الغربية بحلول أواخر القرن العشرين؟

الإجابة: لا، ولكن العلمانية بدأت تتهاوى وتفقد سيطرتها وسحرها وجاذبيتها في العقود الأخيرة من القرن العشرين، وبدايات القرن الواحد والعشرين حتى الآن.

صحيح أن العالم الغربي لازال علمانياً في عمومه، ولكن:

هناك بزوغ لمرحلة جديدة مرتقبة لاحت علاماتها في الآفاق!

هناك مرحلة جديدة بدأت في الانسلاخ من المرحلة الحالية أو إن شئت فقل القديمة!

هناك فتور وتهافت وإعياء شديد للعلمانية!

هناك بزوغ جديد للتدين!

هناك أفئدة كثيرة تهوى إلى التعرف على الله تعالى – على الروح – على النفس – على السعادة – على الآخرة – على الغاية – على الهدف – على المصير...!!

هناك قلوب سئمت وضجرت من المادية والعلمانية والحرية المطلقة!

هناك قلوب وعقول أدركت أن مادية الحياة ونفعيتها البحتة أمرٌ ظاهر البطلان!

هناك قلوب وعقول أدركت أن ثمة عقائد وروحانيات أنفع بكثير للبشرية من ماديتها المفعمة.

تلك مرحلة جديدة سماها كثير من المفكرين والفلاسفة الغربيين **(ما بعد العلمانية)**.

ويجدر بنا الآن الحديث عن الأسباب التي أدت إلى بزوغ عصر جديد؛ (ما بعد العلمانية)، والإشارة بأهمية بالغة: أن تلك المرحلة (ما بعد العلمانية) لازالت في طور التكوين، ولازال جنينها يتكون الآن داخل رحم المجتمع الغربي العلماني نفسه.

ولكن ثمة جنين يتكون قد اقترب مولده! أوشك على الخروج للدنيا كلها، ويتسمى – رسمياً – باسم جديد، يتوافق مع صفاته ومكوناته وزمانه ومكانه!

وإني لأجد نفسي متحفظاً – بشدة – في وصفي للمرحلة الجديدة هذه، بصفة **(الجنين)**، وإن كان البعض قد جاوز بوصفه للمرحلة تلك الصفة، حتى نعتها بالوجود، والظهور، بل: الانتشار والسيطرة؛ حتى إن البعض تحدث على أن تلك المرحلة الجديدة لا يحجبها عن المجتمع سوى الصفة الرسمية والقانونية للعلمانية، وأن تغيرات هائلة في الأفكار والمعتقدات الغربية ستحدث قريباً!! وسيأتي الحديث عن ذلك في حينه إن شاء الله تعالى.

وتلك هي الأسباب التي أدت لظهور المرحلة الجديدة:

١) أن الدين مركوز في النفوس، في أصل فطرتها:

لا شك أن هذا هو السبب الأكثر إقناعاً بالنسبة لنا كمسلمين، نظراً لاستناده لتأصيل من الكتاب والسنة، فضلاً عن إجماع جمهور أهل العلم.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، ويقول: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ علَيَهْاَ لاَ تبَدْيِلَ لخِلَْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الروم: ٣٠].

يقول الإمام ابن كثير في تفسير الآية الأولى: يخبر تعالى أنه استخرج ذرية بني آدم من أصلابهم، شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم، وأنه لا إله إلا هو، كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه، قال تعالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ.....** ﴾ الآية.

وفي الآية الثانية يقول: يقول تعالى: فسدد وجهك واستمر على الدين الذي شرعه الله لك من الحنيفية ملة إبراهيم، الذي هداك الله لها، وكملها لك غاية الكمال، وأنت مع ذلك لازم فطرتك السليمة التي فطر الله الخلق عليها، فإنه تعالى فطر خلقه على معرفته وتوحيده... (١).

ويقول صاحب الكشاف: والمعنى أنه خلقهم قابلين للتوحيد ودين الإسلام، غير نائين عنه، ولا منكرين له؛ لكونه مجاوباً للعقل، مساوقاً للنظر الصحيح، حتى لو تركوا لما اختاروا عليه ديناً آخر، ومن غوى منهم فبإغواء شياطين الإنس والجن.(٢).

فالله تعالى خلق الخلق وفطرهم على معرفته تعالى وعلى التوحيد الخالص،... وعلى ذلك جمهور أهل العلم، وقد أوردت قول الإمام الزمخشري (وهو معتزلي) ولم يبعد كلامه عن كلام أهل السنة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير جـ٣/صـ٣٦١، جـ٦ /صـ١٧٤.

(٢) الكشاف، للزمخشري جـ٣/صـ٥١٠.

وروى البخاري ومسلم... عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ (ﷺ) قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ): ((مَا مِنْ مَوْلُودٍ إِلَّا ويُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَا تُنْتَجُ الْبَهِيمَةُ بَهِيمَةً جَمْعَاءَ، هَلْ تُحِسُّونَ فِيهَا مِنْ جَدْعَاءَ)) يَقُول أَبِو هُرَيْرَةَ (ﷺ): ﴿ فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾[1].

يقول الإمام النووي: وأما الفطرة المذكورة في هذه الأحاديث، قال المازري: قيل هي ما أخذ عليهم في أصلاب آبائهم، وإن الولادة تقع عليها حتى يحصل التغيير بالأبوين...[2].

وروى مسلم بسنده: عَنْ عِيَاضٍ الْمُجَاشِعِيِّ (ﷺ): أَنَّ رَسُولَ اللهِ (ﷺ) قَالَ ذَاتَ يَوْمٍ فِي خُطْبَتِهِ: ((أَلَا إِنَّ رَبِّي أَمَرَنِي أَنْ أُعَلِّمَكُمْ مَا جَهِلْتُمْ مِمَّا عَلَّمَنِي يَوْمِي هَذَا، كُلُّ مَالٍ نَحَلْتُهُ عَبْدًا حَلَالٌ، وَإِنِّي خَلَقْتُ عِبَادِي حُنَفَاءَ كُلَّهُمْ، وَإِنَّهُمْ أَتَتْهُمُ الشَّيَاطِينُ فَاجْتَالَتْهُمْ عَنْ دِينِهِمْ، وَحَرَّمَتْ عَلَيْهِمْ مَا أَحْلَلْتُ لَهُمْ، وَأَمَرَتْهُمْ أَنْ يُشْرِكُوا بِي مَا لَمْ أُنْزِلْ بِهِ سُلْطَانًا....)) الحديث[3].

يقول الإمام النووي: إني خلقت عبادي حنفاء كلهم، أي مسلمين، وقيل طاهرين، وقيل مستقيمين منيبين لقبول الهداية، وقيل: المراد حين أخذ عليهم العهد في الذر... وأنهم أتتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم، أي: استخفوهم، فذهبوا بهم وأزالوهم هما كانوا عليه، وجالوا معهم في الباطل...[4].

---

(١) رواه البخاري في صحيحه، كتاب الجنائز، باب إذا أسلم الصبي فمات هل يصلى عليه... حديث رقم (١٣٥٨) واللفظ له، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة، حديث رقم (٢٦٥٨).

(٢) صحيح مسلم، بشرح النووي جـ٨/صـ٤٦٢، وانظر: فتح الباري في شرح صحيح البخاري، لابن حجر جـ٣/صـ٢١٧.

(٣) صحيح مسلم، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة وأهل النار، حديث رقم (٢٨٦٥).

(٤) صحيح مسلم بشرح النووي جـ٩ / صـ٢١٦.

ومجمل القول أن الله تعالى خلق عباده على فطرة الإسلام، طاهرين من الشرك والذنوب، قابلين للحق والهداية، وأن الشياطين أغوتهم وأضلتهم عن سبيل الله، وعن فطرته التي فطرهم عليها، فضلاً عن آبائهم وأهلهم، كما ذكرت سابقاً.

تلك هي فطرة الله تعالى التي فطر الخلق عليها، **فطرة الإسلام**.

يقول الدكتور محمد عبد الله دراز- بعد أن حكى آراء نخبة كبيرة من فلاسفة الغرب حول الدين -: ((إن الحقيقة التي أجمع عليها مؤرخو الأديان: هي أنه ليست هناك جماعة إنسانية، بل أمة كبيرة، ظهرت وعاشت ثم مضت دون أن تفكر في مبدأ الإنسان ومصيره، وفي تعليل ظواهر الكون وأحداثه، ودون أن تتخذ لها في هذه المسائل رأيًا معينًا، حقًّا أو باطلًا، يقينًا أو ظنًّا، تصور به القوة التي تخضع لها هذه الظواهر في نشأتها، والمآل الذي تصير إليه الكائنات بعد تحوُّلها...))[1].

ذلك هو صوت الفطرة الذي ينادي صاحبه دائماً متسائلاً عن سر هذا الوجود؟ ومن أوجده؟ ولماذا أوجده؟ ولماذا أنا في هذه الدنيا؟ وإلى أين المصير؟ وكيف النجاة؟... إلى غير ذلك من أسئلة، يجيب عنها الوحي إذا وصل صاحبها، وإن لم يصل؛ تظل عالقة في صدره يجيب عنها بإجابات ربما اقتربت من الصواب، وربما بعدت عنه على وفق ما قدّر له.

يقول الدكتور حمدي زقزوق: (الدين ـ أياً كانت الصورة التي ظهر بها هذا الدين ـ مركوز في طبيعة الإنسان، والمتتبع لتاريخ الحضارات البشرية يتبين له أن الدين ـ مطلق دين ـ كان يمثل دائماً الركيزة الأساسية لكل الحضارات....)[2].

---

(١) الدين ـ بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د/ محمد عبد الله دراز صـ٣٨، ٣٩.

(٢) الدين والدنيا، د/ محمود حمدي زقزوق، مقال في مجلة الأزهر، عدد ربيع الأول ١٤٣٧هـ/ ٢٠١٦م، صـ٤٥٣.

وما أعجب ما قاله الفيلسوف الألماني الملحد "فريدرك نيتشه" عن الإيمان الفطري المركوز في النفس، حيث قال: (لقد مات الدين، ولكن شبحه ما زال يخيم على أوربا، وذلك لأن البشرية لا يمكنها أن تتعزى عن فقدها الآله وتسلو)[١].

فمن المعروف في الحقل الفلسفي أن "نيتشه" قد ترك النصرانية وألحد إلى غير دين (بعد أن كان أصحابه يلقبونه بالقس الصغير)[٢]. ومع إلحاده ومحاربته للإيمان بكل أشكاله، إلا أنه لم يستطع سوى أن يصف الحالة الأوربية – في حقبة زمنية مفعمة بالإلحاد – بالوصف السابق ذكره.

يقول الفيلسوف الإنجليزي "**ولتر ستيس**": ((والواقع أننا نلمس هنا وهناك وسط التلال القفرة التي تحفل بها الخبرة البشرية ينابيع ثرية، وآباراً أصلية يتدفق منها "الحدس الديني"، وهذه الينابيع والآبار هي المصادر الأصيلة لكل دين.... وهي ليست في أدنى حاجة إلى دليل خارجي أو إلى تبرير، بل الواقع أنها غير قابلة لذلك أصلاً، والحق أننا لا نعرفها، إلا لأن الإله الباطن فينا قد نطق بها...))[٣].

تلك الينابيع الثرية والآبار الأصلية المتمثلة في ما سماه ولتر ستيس "الحدس الديني" الذي ينطق به الإله الباطن داخل الإنسان، ما هي إلا صوت الفطرة الدينية التي تنادي دائماً بأن هناك إلهاً قادراً حكيماً قد خلق هذا الكون ودبر أمره.

وهذا ما دعا فيلسوفاً مادياً كبيراً مثل الفيلسوف الأمريكي صاحب المذهب البرجماتي "وليم جيمس" أن ((يخصص القسم الأول من محاضراته عن الدين الطبيعي في جامعة أدنبره عام ١٩٠١/ ١٩٠٢م عن رغبات الإنسان، واستعداداته الدينية...))[٤]. فهو يقرر أن الإنسان لا غنى له عن التدين.

---

(١) نقد الحداثة في فكر نيتشه، د/ محمد الشيخ صـ٧٣٤.

(٢) نيتشه عدد المسيح، د/ يسري إبراهيم صـ١١. وانظر: نيتشه نبي فلسفة القوة، كامل عويضة صـ٨، وانظر: تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى الآن، حنا أسعد فهمي صـ٢٣.

(٣) الزمان والأزل، مقال في فلسفة الدين، ولتر ستيس، ترجمة د/ زكريا إبراهيم صـ٣٨.

(٤) وليم جيمس، د/ محمد فتحي الشنيطي صـ١٩٣، وانظر : وليم جيمس رائد المذهب البرغماتي، كامل عويضة صـ١٤٨.

ويقول اميل بترو: ((يرى وليم جيمس أن التجربة الدينية نافعة وأصيلة كالتجربة العلمية، إن لم تكن أكثر مباشرة وحسا وسعة وعمقاً))[١].

وأيضاً فيلسوف المنفعة الشهير (توماس هوبز)، بالرغم من (اعتناقه للنزعة المادية، وتفسيره للعالم وأحداثه بالمادة وحدها، واستبعاده للروح ولواحقها، وإنكاره وجود النفس مستقلة عن الجسم، ورده العواطف إلى اللذة والألم)[٢]. إلا أنه لم يستطع إنكار صوت الفطرة، والباعث الداخلي للإيمان.

((فالإنسان في نظر هوبز هو وحده الحيوان المتدين.... وثمرات الدين لا توجد إلا عند الإنسان، فإن بذور الدين لا توجد إلا عند الإنسان.... فيتميز الإنسان بحب الاستطلاع والرغبة في معرفة العلل.... يقول هوبز: يصرف الإنسان النظر عن المعلول لكي يوجهه نحو التماس العلة، ثم البحث عن علة لهذه العلة، حتى ينتهي بالضرورة في خاتمة المطاف إلى فكرة مؤداها: أن ثمة علة ليس لها أدني علة سابقة، لأنها أزلية، فيصل إلى ما اصطلح الناس على تسميته باسم " الله "، وهكذا نجد أنه يستحيل أن يقوم المرء بأي بحث عميق في العلل الطبيعية، دون أن يجد نفسه مدفوعاً عن هذا الطريق نفسه نحو الاعتقاد بأن ثمة إلهاً أزلياً واحداً))[٣].

وكذلك نجد عالم الاجتماع الأمريكي "بيتر برغر" يبين أن الحداثة بالرغم من سيطرتها على المجتمع الغربي عدة قرون، لم تستطع أن تنتزع أصل الدين من النفوس، وأن صوتاً ما يظهر في أوقات معينة يدل على بقاء الفطرة وسيطرة الوازع الديني؛ يقول بيتر برغر: ((أن الحداثة تنزع إلى زعزعة اليقينيات التي سلم بها الناس، وعاشوا على أساسها معظم تاريخهم، وهذا وضع غير مريح، وبالنسبة للكثيرين غير

---

(١) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة ـ إميل بترو، ترجمة د/ أحمد فؤاد الأهواني صـ٢٦٠.

(٢) الفلسفة الخلقية، د/ توفيق الطويل صـ٢٠٠، راجع: الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين، د/ حمدي عبد العال.

(٣) توماس هوبز، فيلسوف العقلانية، د/ إمام عبد الفتاح إمام صـ٢٠٢ بتصرف.

محتمل أصلاً، في المقابل فإن الحركات الدينية التي تزعم أنها تقدم اليقين إلى الناس تمتلك جاذبية كبيرة.... إذ لطالما ظل الدين المرتبط بالمشاعر القوية موجوداً، فما يحتاج إلى تفسير هو غيابه وليس حضوره، فالعلمانية الحديثة ظاهرة محيرة بقدر أكبر بكثير من أيٍ من هذه الانفجارات الدينية؛ بكلمات أخرى: الظواهر التي ندرسها هنا، وعلى مستوى معين لا تظهر إلا استمرار دور الدين في المكان نفسه الذي لطالما شغله في التجربة الإنسانية))[1].

تلك إطلالة سريعة لبيان السبب الأول من أسباب المرحلة الجديدة (ما بعد العلمانية) ممثلة في الباعث الفطري للتدين، وأن النفس البشرية مهما انهمكت في سبيل التيارات الحديثة من علمنة ووجودية وشيوعية وبرجماتية... وغيرها، فإنها بلا شك تحمل بين ثناياها فطرة حقيقية تقودها من حين لآخر للبحث عن الحقيقة، أو إدراكها بالفعل.

وأحببت أن أبرهن على ذلك ـ فضلاً عن أدلة الكتاب والسنة وعلماء أهل القبلة ـ بأقوال فلاسفة الغرب وعلمائهم الذين بذلوا جهوداً مضنية لمعرفة ذلك السر الداخلي الذي بات مؤكداً لديهم، خاصة وأن معظمهم من الفلاسفة الماديين النفعيين والملحدين!

٢) أن العلم دائماً يدعو إلى التدين والإيمان بالخالق:

بات مؤكداً لدى أصحاب العقول والفطر السليمة، أن نتائج العلوم التجريبية الحديثة تقود دائماً إلى الإيمان بوجود خالق عظيم؛ ولئن كان العقل الغربي –وخاصة الأوربي– مشحوناً بتلك الشحنات السالبة عن الدين في مطلع عصر النهضة، وكان العلم التجريبي ونتائجه وثماره الصناعية محسوباً على الجناح المناهض للدين – أو للكنيسة ورجالها – في مستهل فترة مخاض عصيبة لولادة العلم والعلمانية من رحم عصر ملئ بالخرافات والجهل والمرض والظلم والقهر والأمور الكهنوتية البالية؛ إلا أنه

(١) زوال العلمنة عن العالم، بيتر برغر، ترجمة / رامي طوفان، فصيلة الاستغراب، عدد ٢، صـ٢٦١.

من المؤكد في الفترات الأخيرة أن العلم استدار إلى وجهته الأصلية المنوطة به، وهي: (التأكيد والبرهنة على وجود خالق عظيم لهذا الكون)، وأن ثمة أمور كثيرة متعلقة بالنتائج العلمية التجريبية الحديثة: إيمان العلماء بالله تعالى، وعلاقة هذا الإيمان بالأديان ـ وخاصة النصرانية – ومقارنة هذه النتائج مع النصوص الدينية، وظهور الإسلام على الساحة كمنافس – هو الأقوى ـ للنصرانية والأديان الأخرى والإلحاد على السواء، فضلاً عن إعلان كثير من العلماء التجريبيين لإسلامهم بعد ما ظهر من قوة هذا الدين وعظمته...

إن مسألة العلاقة بين العلم والدين، والتوافق المتزايد بين نتائج العلم الحديث والإيمان بوجود الخالق تعالى وتفرده بالحكمة البالغة، باتت من البدهيات التي لا يماري فيها إلا جاهل أو حاقد ولا ينكرها إلا معاند أو مكابر.

يقول خوزيه كازانوفا: ((واللافت أن الدعوات لتوليفة جديدة بين العلم والدين تأتي اليوم من علماء الطبيعيات والعلمانيين (المُرَوعين) بسبب الاكتشافات العلمية الحديثة، التي تكشف المزيد من أسرار الكون أكثر مما تأتي من رجال الدين))[١].

ويقول إميل بترو في كتابه "العلم والدين في الفلسفة المعاصرة" تحت عنوان (العلم باعتبار أنه يتجه نحو الدين): ((على الرغم من شهرة المذاهب المادية والطبيعية التي تصحب العلم غالباً، يصر كثير من الفلاسفة والعلماء المختصين على إنكار أن مناهج العلم ومضمونة قد تتعارض مع مبادئ الدين، ومنهم من يعتقد ـ وهم الفريق الأغلب ـ في إمكان التمسك بأن المذاهب العلمية الحديثة نفسها أصول العقائد الدينية.... ومع ذلك يمكن القول بوجه عام: أننا اليوم نبحث بشكل غير مباشر في العلم لننفذ منه إلى الدين...))[٢].

---

(١) الأديان العامة في العالم الحديث، خوزيه كازانوفا، ترجمة / قسم اللغات الحية والترجمة، جامعة البلمند صـ٣٤٧.

(٢) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، إميل بترو، ترجمة د/ أحمد فؤاد الأهواني صـ٢٠٥ بتصرف يسير.

وهذا الكلام – بغض النظر عن كونه واضح الدلالة على ما تحدثت فيه – يأتي من اثنين من العلماء شديدي الاهتمام بمسألة العلاقة بين العلم والتدين، وهذا ما أحببت أن أرصده في تلك المسألة على الخصوص.

وإن كان الحديث حتى الآن في هذه المسألة – أن العلم دائماً يقود إلى الإيمان بالله تعالى والتدين – يعد من قبيل التنظير الاستدلالي؛ إلا أنه بات لازماً الآن الاستدلال بأقوال العلماء التجريبيين أنفسهم.

فهناك مجموعة كبيرة من العلماء التجريبيين "الأمريكيين" ألَّفوا كتاباً قيماً عن مدى ارتباط نتائج العلوم التي يبحثون فيها بالاستدلال على وجود الله تعالى، وعلى لازمية العودة إلى التدين مرة أخرى بعد الفوضى العارمة التي أحدثتها "العلمنة" في القرون القليلة الماضية.

هذا المؤلف هو كتاب "الله يتجلى في عصر العلم" وتكمن أهميته:

أولاً: في العدد الهائل من العلماء التجريبيين – أصحاب التخصصات المختلفة – الذين قاموا بتصنيفه.

وثانياً: في توحيد موضوع البحث وهو: أن نتائج العلوم الحديثة تؤكد دائماً على ضرورة الإيمان بوجود خالق عظيم لهذا الكون.

وثالثاً: أن هؤلاء العلماء ينتمون إلى جامعات مختلفة، فضلاً عن مشاربهم وأصولهم الدينية المختلفة أيضاً.

وسأنقل بعض العبارات لبعض هؤلاء العلماء باختصار شديد كنوع من أنواع الاستدلال بأقوال المتخصصين على موضوع المبحث:

يقول جون كلينلاند – "**عالم كيمياء ورياضيات**": ((إذا فكرت تفكيراً عميقاً، فإن العلوم سوف تضطرك إلى الاعتقاد في وجود الله))... ((فهل يتصور عاقل أو يفكر أو يعتقد أن المادة المجردة من العقل والحكمة قد أوجدت نفسها بنفسها بمحض المصادفة؟ أو أنها هي التي أوجدت هذا النظام وتلك القوانين ثم فرضته على نفسها؟

لا شك أن الجواب سوف يكون سلبياً))..... ((فإذا كان هذا العالم المادي عاجزاً عن أن يخلق نفسه، أو يحدد القوانين التي يخضع لها، فلابد أن يكون الخلق قد تم بقدرة كائن غير مادي، وتدل الشواهد جميعاً على أن هذا الخالق لابد أن يكون متصفاً بالعقل والحكمة))[١].

ويقول إدوارد لوثر كيسيل – عالم حيوان وحشرات –: ((أضاف البحث العلمي خلال السنوات الأخيرة أدلة جديدة على وجود الله، زيادة على الأدلة الفلسفية التقليدية... وأنا بوصفي ممن يؤمنون بالله أرحب بهذه الأدلة الجديدة لسببين: فهي أولاً تزيد معرفتنا بآيات الله وضوحاً، وهي ثانياً تساعد على كشف الغطاء عن أعين كثير من صرحاء الشكيين حتى يسلموا بوجود الله... ولكنني وصلت إلى كثير من هذه الأدلة فيما قمت به من البحوث حول أجنة الحشرات وتطورها، وكلما استرسلت في دراستي للطبيعة والكون، ازدادت قناعتي وقوي إيماني بهذه الأدلة، فالعمليات والظواهر التي تهتم العلوم بدراستها، ليست إلا مظاهر وآيات بينات على وجود الخالق المبدع لهذا الكون...))[٢].

ويقول وولز أوسكار – عالم فسيولوجيا وكيمياء حيوية –: ((للعالم المشتغل بالبحوث العلمية ميزة على غيره، إن استطاع أن يستخدم هذه الميزة في إدراك الحقيقة حول وجود الله))[٣].

ويقول جورج إيرل ذافير – عالم طبيعة –: ((كلما تقدم ركب العلم، وتضاءلت الخرافات القديمة، ازداد تقدير الإنسان لمزايا الدين، والدراسات الدينية...))[٤].

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم، تأليف/نخبة من العلماء الأمريكيين، ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان صـ٢٧، ٣٠، ٣١.

(٢) المرجع السابق صـ٣٢، ٣٦.

(٣) السابق صـ٣٧.

(٤) السابق صـ٤٥.

ويقول جون وليام – عالم وراثة–: ((السموات تشهد بجلال الله، وإحكامها يدل على جلال صنعته،... يقول الأحمق في نفسه: ليس هناك إله))[١].

ويقول دونالد رويت – عالم كيمياء جيولوجية –: ((عندما يطلب إلينا أن نبين الأسباب التي تدعونا إلى الإيمان بالله، نستطيع أن نجد في بحوثنا العلمية ما يدعونا بقوة إلى الإيمان به))[٢].

ويقول سيسل هامان – عالم بيولوجي –: ((أينما اتجهت ببصري في دنيا العلوم، رأيت الأدلة على التصميم والإبداع، وعلى القانون والنظام، وعلى وجود الخالق))[٣].

وهذا قليل جداً من كثير مما ذكره هؤلاء العلماء وغيرهم؛ حوالي ثلاثون عالماً، اختلفت مشاربهم وتوجهاتهم الفلسفية والدينية والعلمية وتخصصاتهم، واتفقت كلمتهم على أن (العلم دائماً يدعو للإيمان بوجود الخالق تعالى)، وأيضاً أعضدد بمؤلف آخر تحت عنوان (العلم يدعو للإيمان) للعالم الأمريكي كريسي موريسون، الرئيس السابق لأكاديمية العلوم بنيويورك، حيث يقول مترجم الكتاب: (استعان المؤلف بأمثلة من علم الفلك والجيولوجيا، وعلم الحشرات، وعلم النبات، وعلم الأحياء والطبيعة... وقد أعجبتني الغاية السامية التي توخاها المؤلف، ألا وهي: إثبات وجود الله ووحدانيته بأدلة من العلم المادي الحديث)[٤].

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم، تأليف/نخبة من العلماء الأمريكيين، ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان صـ٥٢ .

(٢) السابق صـ٩٠.

(٣) السابق صـ٣٥.

(٤) العلم يدعو للإيمان، كريسي موريسون، ترجمة / محمود صالح الفلكي صـ٤.

ويقول كريسي موريسون: (إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها، تكون الحياة بدونها مستحيلة، وأن وجود الإنسان على ظهر الأرض والمظاهر الفاخرة لذكائه إنما هي جزء من برنامج ينفذه بارئ الكون)[١].

وتوجد مؤلفات عديدة لكبار العلماء في هذا المجال لتحقيق هذا الهدف النبيل، يضيق الوقت عن ذكرها، لئلا يطول بنا المقام أكثر من ذلك.

٣) هزيمة العلمانية وإخفاقها في تلبية المطالب المتكاملة للإنسان:

لا شك أن انهزام العلمانية وتوابعها أمام متطلبات الإنسان "كإنسان"، وتحقيق التوازن والتوافق بين تلك المتطلبات، أصبح ظاهراً للعيان، مشهوداً عليه بأدلة لا تكاد تخفى على من له أدنى صلة بالعلوم الإنسانية، فضلاً عن المختصين في الفلسفة وعلوم الدين.

لقد أدرك العالم الآن أن تلك الأطروحة "العلمانية" التي سيطرت على معظم العالم، وعاشت مهيمنة على المجتمع العالمي – وخاصة الدول الكبرى ذات النفوذ السياسي العالمي – في عدة قرون، وصبغت تلك المجتمعات بصبغتها المادية والنفعية والآلية، أصبحت الآن في شيخوخة عمرها، تتحسس وريثاً لها، يُطلب منه القيام بأدوار مختلفة تماماً عن الأدوار التي قامت بها طيلة عمرها المديد، وربما أدركت العلمانية أن وريثها هذا "لن يحمل شيئاً من صفاتها وجيناتها"، لأن تلك الصفات والجينات الخاصة بالعلمانية أوقعت العالم الآن في مأزق خطير متعدد الجوانب في إشكالياته المتفاقمة والمتوالية!

((فالإنسان منذ وجد على الأرض، كان تطلعه دائماً، يريد أن يخترق حجب العالم الحسي، عالم المظاهر والشخوص، لكي ينفذ إلى حقائق الأشياء ودخائل النفوس، وتلك سمة ثابتة من سمات الروح الإنساني في كل مكان، ومطلب أصيل من مطالبه

(١) العلم يدعو للإيمان، كريسي موريسون، ترجمة / محمود صالح الفلكي صـ١٥.

في كل عصر، وسواء كان الإنسان مؤمناً أو ملحداً، وضعياً أو مثالياً، أخلاقياً أو متمرداً على الأخلاق، فهو دائماً مشغول بالاعتقاد.... ولا يستطيع أن ينبذ مذهباً إلا لكي يتخذ بديلاً منه يراه أفضل))[1].

((وعندما تبدو العقائد العلمانية وكأنها أخفقت، أو فقدت معظم قواها، يعود الدين إلى المضمار العام، قوة معبئة أو معيارية تكافلية.... ويمكن لأزمة العلمنة ـ على الأكثر ـ أن تفيد كعامل مؤثر مشترك يسمح لبعض التقاليد الدينية التي لم تضعفها سيرورات العلمنة كثيراً، بأن تستجيب بطريقتها الخاصة))[2].

ومن الدراسات التي تناولت هذه المسألة – هزيمة العلمانية وإخفاقها في تلبية مطالب الإنسان – دراسة الأستاذين: الدكتور المسيري، والدكتور العظمة في كتابهما (العلمانية تحت المجهر)، حيث عدد الدكتور المسيري مشكلات العلمانية وإخفاقها في حل أولويات المهمات الإنسانية، واهتمامها بالجانب المادي فقط، دون بقية الجوانب الإنسانية التي هي في قمة اهتمامات الإنسان (كإنسان) نذكر جانباً منها:

(إن المقدرة التفسيرية الترشيدية للنموذج العلماني الشامل، قد تكون عالية حين يكون التعامل مع العالم المادي، أو مع الإنسان في جانبه المادي، ولكنها تكون ضعيفة، بل تكاد تكون منعدمة، حينما يكون التعامل مع ما يميز الإنسان كإنسان (تطلعاته . أحلامه . آماله . اختياراته . باطنه . قيمه.... إلخ)، فهذه هي المشكلة الكبرى للعلمانية الشاملة..... إن العلمانية الشاملة تنكر وجود الكليات والثوابت المتجاوزة لصيرورة المادة.... فالعلمانية الشاملة تحول العالم إلى مادة استعمالية، وترفض أي مرجعية متجاوزة للعالم المادي والحواس الخمس....

---

(١) الجوانية، د/ عثمان أمين صـ٢٥٤.

(٢) الأديان العامة في العالم الحديث، خوزييه كازانوفا، ترجمة / قسم اللغات الحية والترجمة، جامعة البلمند، صـ٣٣٦.

لم ينجم عن عمليات العلمنة الشاملة أي تعميق للفردية، أو زيادة التحكم في الذات الإنسانية... النموذج العلماني يبدأ بوضع الإنسان في المركز، ثم يزجه تدريجياً عن المركز (لتحل محله القوانين الطبيعية) وينتهي الأمر بتفكيك الإنسان تماماً، وإلغاء مقولة (الإنسان)... لاحظ الإنسان أن التقدم التكنولوجي لم ينجم عنه بالضرورة تحسن في الأداء الإنساني... أفرزت (العلمانية) رؤية عنصرية قامت بتصنيف البشر على أساس صفات مادية (لون الجلد . الشعر، الجمجمة) وأكدت التفاوت بين الشعوب، ونظرت إلى الشعوب غير الغربية وأراضيها ومواردها باعتبارها مادة إستعمالية، يمكن للسوبرمان الغربي أن يوظفها لحسابه باعتباره أقوى الشعوب وأكثرها رقياً....))[1].

فمن أبرز معاني العلمانية: اللادينية، الدنيوية ـ الدنيوي... الخ، وكلها معاني تضرب الإنسان في (إنسانيته) ـ بقدر إعلائها للجانب المادي ـ وتزيد من عزلته عن الروحية والقيمية والأخلاقية، وتصنيفه كآلة أكثر بكثير من تصنيفه كإنسان.

في الحقيقة أن العلمانية لم تدرك أنها ستهزم هزيمة نكراء يوماً ما، وأن التقدم المادي والتكنولوجي المذهل، ربما يكون في يوم من الأيام إحدى أدوات الهدم لها؛ فتوافر الاحتياجات المادية والترفيهية للإنسان الغربي دون مطالبة أو جهد أو تعب، وَلَّد إحساساً بالسأم والملل، وروتينية الحياة الغربية، وكآبة عند الكثيرين منهم ـ فضلاً عن شخصياتهم العامة وفلاسفتهم ومفكريهم ـ!!

وإنه لمن المستغرب جداً عندما نطالع أقوال الصحف والمجلات ـ فضلاً عن الباحثين والمختصين بالدراسات الإنسانية والفلسفية والفكرية ـ ونتائج الإحصاءات الرسمية وغير الرسمية، أن نستوعب ذلك الدمار الذي ألحقته العلمنة بالبشرية في الآونة الأخيرة...

---

(١) العلمانية تحت المجهر، د/ عبد الوهاب المسيري، د/ عزيز العظمة، من صـ٢٨ إلى صـ٤٠ بتصرف.

من ارتفاع معدلات الجريمة، والعدد الهائل لحالات الانتحار، والأمراض النفسية والعصبية، وحالات الإدمان، والسُكر، والزنا، والولادات غير الشرعية، وفض العذرية – لدى الذكور والإناث على السواء – في سن مبكرة جداً، وحمل المراهقات والتفكك الأسري، واللامبالاة الاجتماعية والنفسية، وانهيار الجدار الأخلاقي، وغياب المبادئ والأصول العامة، وضياع القيم والمفاهيم الأخلاقية، وتسلط المادة والشهوة والغرائز، وإهمال الجوانب الروحية في الإنسان... الخ.

((وفي تصوري أن الإنسان غير قادر على استيعاب تصاعد وتأثر الاستهلاكية بسبب حدود جهازه العصبي وحدود العقل... وقد أدى كل هذا إلى الإحساس بعدم الاتزان، وفقدان التحكم، واختفاء الحدود على المستوى الفلسفي، إلى ظهور (ما بعد الحداثة) والعدمية الفلسفية، أما على المستوى الاجتماعي، فقد أدى إلى تزايد الجريمة، ومعدلات الطلاق، والعزوف عن الإنجاب والإباحية، وكل الآفات التي تصنف على أنها (الثمن الحتمي والمعقول للتقدم)))[1].

ولا يفهم من ذلك الطرح – على الإطلاق – أننا نقدح في التطور والتقدم العلمي وارتقاء المستوى المادي والمعيشي! بل العكس، ولكن يجب أن نفهم ذلك في إطار (تجنب العلمنة – قصداً أو سهواً – وإغفالها للجانب المعنوي والقيمي والروحي لدى الإنسان).

((فقد لاحظ الإنسان أن التقدم التكنولوجي لم ينجم عنه بالضرورة تحسن في الأداء الإنساني، وقد دعَّم مسار التاريخ الغربي ـ بعد هيمنة فكرة التقدم ـ من شكوك الإنسان بخصوصها، إذ نشبت حرب عالمية أولى، ثم ثانية))[2]، وتعدي سافر على حقوق الدول الضعيفة ـ على سبيل المثال: فلسطين والبوسنة والهرسك، والشيشان، والعراق، وبورما،

(١) العلمانية تحت المجهر، د/ عبد الوهاب المسيري، د/ عزيز العظمة، صـ١٣٤.
(٢) السابق صـ١٣٨.

ووسط أفريقيا... الخ ـ وقتل أبنائها ورجالها، واغتصاب الكثير من نسائها وتشريد أطفالها، وبعد كل ذلك، تركها فريسة للفقر والجوع والأمراض...!! فضلاً عن استغلال ثروات وموارد الدول المستضعفة، ونهب أموالها بطرق مختلفة على مرأى ومسمع من المجتمع العالمي الذي ظل متمسكاً بصمته وتغافله عما يحدث هنا وهناك.

وإذا كان كل هذا يعد جزءاً مما حدث في القرن العشرين، فإن ما حدث في القرن التاسع عشر أفظع وأخطر!، من الحملة الاستعمارية الموسعة التي شنها الغرب (العلماني) المتقدم على الشرق (الأصولي) المتخلف، وما نجم عن ذلك من تجهيل لهذه الشعوب، وإفقار لها، ونهب لثرواتها الطبيعية، وبث بذور الفتنة والطائفية، وإحياء للنعرات والقوميات القديمة، وبث روح الفرقة والنزاع بين أبناء الوطن الواحد، ووضع العلامات والحدود السياسية بينهم!!

تلك هي نتائج حقيقية (تاريخية وواقعية) لشيوع العلمنة (المفعمة بالمادية والنفعية) في الأوساط الغربية في القرون الأخيرة؛ ازدادت حدتها في الآونة الأخيرة حتى نالت من الإنسان الغربي نفسه وكادت أن تفتك به، خلقياً، ونفسياً، واجتماعياً، كما تحدثت سابقاً.

((إن الصورة التي تقدمها الحضارة الغربية نهاية القرن العشرين أشد قتامة مما يظن الكثيرون المخدوعون، إنها تقدم موجة الانتحار الجماعي التي تشير التقارير أن هناك ١٠ آلاف شخص يحاولون الانتحار في اليوم الواحد، وأن أعلى نسبة في الولايات المتحدة، ثم اليابان وألمانيا الغربية... ثم الأمراض السرية التي تفتك فتكاً ذريعاً بالمواطنين في دول أوربا والغرب، ويقول طبيب إنجليزي: أن الانحلال الخلقي وتدهور القيم والمثل العليا في بلادنا، سيصيب الجيل الجديد بأمراض سرية لا أول لها ولا آخر، تجعله عاجزاً عن متابعة حياته، وتحرمه من الإبداع الفني والعلمي))[١].

(١) ترشيد الفكر الإسلامي، أنور الجندي صـ٩٥.

بل إن الأمر تخطى العامة والجمهور حتى وصل إلى الفلاسفة والمفكرين أيضاً: ((لقد وصل (جاكوب مورنوه) ـ وهو يعد من عمالقة الفكر العلمي في أمريكا، ورائد المدرسة النفسية الاجتماعية ـ إلى ذلك المأزق، وأدخل نفسه في مصيدة العلمانية، فلم يستطع خروجاً، لقد انتحر حين قرر ألا يأكل ولا يشرب حتى الموت، وألقى بنفسه إلى التهلكة ومات يائساً محبطاً، وهو عالم النفس الذي ينتظر منه أن يعطي الأمل لملايين المرضى!... وها هو (ألترسير) من أقدر فلاسفة المادية والماركسية؛ حيث قتل زوجته بجانبه على الفراش ثم سَلَّم نفسه للسلطات... ولقد أعلن (هايدي جاردن) ـ الذي يعتبر عميد لفلاسفة العصر في أوربا ـ صراحة عن الإفلاس العقلي والفراغ الفكري، وعن المأزق الذي وصل إليه العلمانيون فيقول: (إنني أصر على القول بأن الطريق لا تئول إلى أي مكان... وعلى الإنسان وهو القلق أن يعرف أنه يعيش في ليل أوربا). وعاش جان بول سارتر ـ فيلسوف الوجودية الشهير ـ سنواته الأخيرة في الخوف والفزع والرجفة، وعندما سئل وهو يحتضر: إلى أين قادتك فلسفتك؟ قال ـ وهو يعلن إفلاسه ـ: لقد قادتني فلسفتي إلى هزيمة نكراء))[1].

إن الحديث عن الكثير من هؤلاء الفلاسفة الماديين والمفكرين العلمانيين، لا يكاد ينقطع عن مدى فشل هذه الفلسفات والأفكار والمذاهب التي طالما تشدقوا بها ردحاً من الزمن، واستطالوا بها على المعتقدات الدينية ـ فضلاً عن المذاهب الروحية والمثالية ـ وزعموا أنهم على الحق، وأنهم يعملون لخير البشرية، فما زادوا العالم إلا وبالاً وظلماً، وقتلاً، وإرهاباً، وطغياناً.... الخ.

وها هم ينتكسون أنفسهم، ويعترفون بهزيمتهم وإفلاسهم، بل إن منهم (الكثير) من يغادر الحياة بمحض إرادته لعدم توافقه النفسي والاجتماعي مع عالمه!!

(١) الأخلاق الإسلامية، د/ حسن الشرقاوي صـ٣٧٥.

((ومن هنا يمكن أن نفهم الخلفيات التي حفزت عدداً من الفلاسفة والمفكرين وعلماء الاجتماع على المبادرة إلى التنظير لضرورة (تجاوز العلمنة)، ولو كان لنا أن نستظهر دوافع هؤلاء من وراء فكرة (ما بعد العلمانية) لأجملناها في ثلاثة:

١) استشعارهم للمآلات التي قد ينتهي إليها المأزق التكويني للحضارة الحديثة... وإعراضهم عن متاخمة الأبعاد الروحية والأخلاقية والمعنوية للإنسان المعاصر.

٢) خيبة الأمل الكبرى مما انتهت إليه اختبارات العلمنة في الدول والمجتمعات الأوربية.

٣) ولادة أفق معرفي جديد يعيد تشكيل منظومة المجتمعات الغربية، ويرمم ما تصدع في بنيتها... تحتل فيها فكرة (ما بعد العلمانية) رأس أولوياتها))[١].

لقد أصبح في تقدير الكثيرين، زوال هذه الحضارة المعقدة التي تدمرها تكنولوجيتها، وتهددها اكتشافاتها العلمية.... يقول "جيرالد هيدر": (إن الغرب تعس متخلف يحكمه القانون العلمي في كل شيء، حتى غدا الإنسان آلة قابلة للتحكم، مادام كل شيء لا هدف له ولا أخلاق له ولا قيم) إن كل ما يملك الغرب هو القدرة على التصنيع، والقدرة وحدها قد تدمر[٢].

((وقد أدرك البروفسير "جون كين" تماماً هذه الجوانب المظلمة للتجربة العلمانية، ولذا وضع مصطلح (ما بعد العلمانية) على وزن (ما بعد الحداثة) و (ما بعد الأيديولوجيا).... و (ما بعد العلمانية) تعني أن نموذج العلمانية قد دخل مرحلة الأزمة... وبالفعل يتحدث البروفسير "كين" أن العلمانية لم تَفِ بوعودها، لا في العالم الأول، ولا في العالم الثالث))[٣].

---

(١) ما بعد العلمانية، محمود حيدر صـ١٧٧.

(٢) ترشيد الفكر الإسلامي، أنور الجندي صـ٩٦.

(٣) العلمانية تحت المجهر، د/ عبد الوهاب المسيري، د/ عزيز العظمة صـ١٤٤.

لقد بات مؤكداً أن (العلمانية) قد هزمت هزيمة نكراء، بل إن أصحابها ودعاتها قد هزموا أيضاً ـ سواءً منهم من اعترف بهذه الهزيمة ومن لم يعترف ـ وأنها قد خَلَّفت دماراً واسعاً في هذا العالم بشقيه: المحتضر (المتمدن والمتقدم)، والمتخلف! على مستوى المجتمع العالمي، وأيضاً على مستوى الأفراد وما خلَّفته من كوارث نفسية واجتماعية وأخلاقية سبق ذكرها بالتفصيل.

٤) انهيار الجدار الأخلاقي للشعوب والحكومات الغربية:

لا شك أن هذا المبحث متصل بما قبله اتصالاً وثيقاً، لكونه مظهراً من مظاهر (هزيمة العلمانية) ونتيجة من نتائج شيوعها في المجتمعات الغربية، وتطبيقها على صغائر الأمور وكبرياتها على السواء.

وقد أشرت سابقاً إلى ما خلَّفته العلمانية من دمار هائل للشرق والغرب على السواء، ونشر للفساد والظلم والطغيان على الأمم المستضعفة، وكذا نشر للانحلال والعرى والمجون في مجتمعاتهم الغربية، حتى انهار الجدار الأخلاقي لهذه الشعوب والحكومات، فتلك الشعوب تعاني بشدة من الفراغ العقدي والأخلاقي وغياب المبدأ والهدف والغاية، فانحدرت إلى هوة سحيقة لا قرار لها، فلم يحصدوا شيئاً لأنفسهم سوى: الملل والكآبة والأمراض النفسية والعصبية والتفكك الأسري والانهيار الأخلاقي كما سبق وأن ذكرت أكثر من مرة.

وأقول بحق ((فقد ارتفعت نسبة الدخول والموارد في بعض بلاد أوربا على النحو الذي جعلها في القمة، وما زالت هذه الدول تقاسي أشد ألوان التمزق النفسي، وفيها أعلى نسب للانتحار والقتل، والحضارة الغربية اليوم تقدم أبشع صورة للإنسان في مجال التدمير، ولا ريب أن أخلاقية الحضارة هي حجر البناء الأول، فإذا فقدت الحضارة هذا الأساس فإنها مهما تظل بها الحياة فستظل الملايين القائمة بها مدمرة منهارة...))[١].

(١) نحن وحضارة الغرب، أنور الجندي صـ٣٩.

وقد سُجلت هذه الحقيقة المرة على لسان أكابرهم، إذ كُتب في مجلة شئون دولية البريطانية، التابعة لجامعة كامبردج، يناير ١٩٩١م:.... المجتمعات الغربية التي يسودها مذهب اللادرية، وفتور الهمة، واللامبالاة، وهي آفات من شأنها أن تؤدي إلى هلاك تلك المجتمعات مادياً، فضلاً عن هلاكها معنوياً(١).

ويقول إدوارد مورتيمر: وفي الاتحاد السوفيتي بدأ التغيير من أعلى، وعلى يد المثقفين العلمانيين... والأمر الذي كان مدهشاً حقاً هو السرعة التي اتجه بها المجتمع والدولة على حد سواء إلى الكنيسة في بحث بائس عن شيء يملأ الفراغ الأخلاقي المروع الذي كشف عنه انهيار الأيديولوجية الشيوعية(٢).

إن ما أدهشني بالفعل هي عبارة: (البحث البائس عن شيء يملأ الفراغ الأخلاقي المروع**)** تلك هي النتيجة الحتمية والحقيقية للعلمنة، والتي أصبحت – وبلا شك – واقعاً مشاهداً ومعايناً لا مناص عنه.

فهؤلاء الناس المتحضرون والمتمدنون الذين كنا نأخذ عنهم علمهم وأخلاقياتهم وثقافتهم في انبهار، وننظر إليهم كملهمين وأساتذة.... يريد الله تعالى أن يرينا هذه "العلمانية" التي فتن بها أولادنا وشبابنا، والتي كتب عنها سلامة موسى في افتتان وإعجاب... هؤلاء **(**العلمانيين الغربيين**)** أراد الله تعالى أن نراهم في ضوء الابتلاع الساطع طغاة لا إنسانيين، وسفاحين قتلة...والعلمانيون منا مازالوا يكتبون غثاء، ويروجون غثاء، ويتعبدون لقبلة انهارت قواعدها(٣).

انهارت قواعدها وبناياتها الأخلاقية، مستغيثة بأي شعاعٍ من نور ينقذها من هذا الظلام الحالك الذي ملأ القلوب والعقول، وظهرت أعراضه المميتة على البلاد والعباد،

---

(١) الغارة الجديدة على الإسلام، د/ محمد عمارة صـ٥.

(٢) جورباتشوف، الجلاسنوست والإنجيل، مايكل بوردر ١٩٩٠، نقلاً عن: الغارة الجديدة على الإسلام، د/ محمد عمارة صـ١٦.

(٣) الإسلام في خندق، د/ مصطفى محمود صـ١٥٦ بتصرف.

وصار لسان حالهم ومقالهم: فلتذهب العلمانية إلى الهلاك، ولنبحث من جديد عن طريق آخر يكون الإنسان فيه (إنساناً) من روح وعقل وقلب وبدن، لا كتلك الآلة المادية النفعية المسماة مجازاً (إنسان).

ولذلك نجد وليام جيمس: ((يرى أنه لا معنى لقيام علم أخلاق في عالم ليست به حياة إنسانية، إن عالماً به عناصر مادية ومركبات كيماوية، لا نجد منه مدلولاً للخير والشر، والفضيلة والرذيلة والحسن والقبح، لا يمكننا أن نقول إن جسماً مادياً أكثر خيراً من جسم مادي آخر، إنه موجود أو غير موجود وكفى، ولذلك يرى وليام جيمس أن الأخلاق تقوم في عالم به كائنات، لها مطالب ورغبات وإحساسات ومشاعر، هذه الكائنات هي بنو الإنسان))[١].

هذا هو وليام جيمس الذي يُعد من كبار فلاسفة المذهب المادي البرجماتي، لا يستطيع إلا أن يرد الإنسان إلى كينونته الأصلية (كإنسان)، ولذلك نجده يقول: ((إنه ليبدو لي – وتلك نتيجتي النهائية – أن العالم الخلقي المستقر المنظم الذي يبحث عنه الفيلسوف الخلقي، لا يمكن أن يوجد كاملاً إلا حيث توجد قوة مقدسة ذات مطالب عامة شاملة، فإذا وجدت هذه القوة فإن منهجها في إخضاع أحد المثل للآخر سيكون المنهج الصحيح لتقدير القيم... لذلك ينبغي علينا ـ كفلاسفة ـ ومن أجل تحقيق غاياتنا إيجاد نطاق خلقي واحد، أن نفترض وجود الله))[٢].

فانهيار الجدر الأخلاقية للغرب يعتبر من أهم أسباب بزوغ فجر المرحلة الجديدة (ما بعد العلمانية)، وإن كان جيمس قد قال هذا الكلام قبل عام ١٩١٠م، حيث كانت وفاته؛ إلا أن ذلك الصوت قد اشتد الآن، ونادى به كثيرون، ولا يزالون ينادون، وينادي غيرهم، حتى اضطر الفلاسفة المعاصرون أمثال: بيتر برغر، وخوزيه

(١) وليم جيمس رائد المذهب البرغماتي، كامل عويضة صـ١٦٨.

(٢) السابق صـ١٦٩.

كازانوفا، ورودني ستارك، ويورغن هابرماس إلى التأريخ رسمياً (الآن ومنذ سنوات قليلة مضت) لمرحلة (ما بعد العلمانية).

يقول الدكتور محمد عبد الله بدران: ((والعالم يمر الآن بأزمات أخلاقية شاملة، ولابد لها من علاجات إنسانية حاسمة وعاجلة، ولعل أصعب هذه الأزمات الأخلاقية علاجاً، وأكثرها تغلغلاً، وأشدها تعقيداً، وأوسعها انتشاراً، وأخطرها تدميراً: الأزمة الأخلاقية في التفكير (كله من ألفه إلى يائه)، بل في كل ما يترتب عليه... مما أدى بالإنسانية كلها إلى التضارب والتناقض والتطاحن في كل مجالات التفكير، وفي كل ما ينتج عن التفكير، ومما قد يؤدي بالإنسانية في طول الأرض وعرضها إلى التصارع والتناحر والتخريب... ولعل مرد ذلك مرة أخرى إلى الفردية والأنانية والآلية، وإن شئت فقل إلى الوضعية والواقعية والبيئية، وإذا أنصفت فقل إلى العلمانية والسطحية والفوضوية))[1].

ويقول الأستاذ أبو بكر ذكري: ((طغت على أوربا أخلاق قطعان السوقة، فخارت أمامها القوة، وحب المخاطرة، وانفسح الطريق، فحل المكر الخائن محل القوة الشريفة، والانتقام الخفي محل الانتقام العلني، والرأفة الضعيفة محل العنف القوي، وسلط سوط الضمير على النفس بدل كبرياء الشرف))[2].

وما أعجب ما نادى به فلاسفة الغرب الحديث (الماديين والنفعيين)! من إعلاء وانتصار لكل ما هو مادي وبرجماتي وأناني، تلك الفلسفات التي أغرقت الغرب في مشكلات ومعضلات أخلاقية لا حل لها، سوى التمسك بذلك الصوت الذي وُلِدَ جديداً المسمى (ما بعد العلمانية)!.

---

(١) الفلسفة الحديثة في الميزان وتأسيس القواعد من القرآن، د/ محمد فتح الله بدران صـ١٩.

(٢) تاريخ النظريات الأخلاقية وتطبيقاتها العملية، أبو بكر ذكري صـ٤٣.

٥) كثرة المذاهب والفلسفات والآراء في العصر الحديث لدى الغرب:

حينما تتعدد المذاهب والفلسفات والأفكار، وتُطرح رؤىً مختلفة ومتباينة – ومتناقضة أحياناً – لحل إحدى المشكلات لدى الأفراد أو الجماعات، يزداد المرء حيرة على حيرة، ويلتبس الأمر عليه لبساً على لبس، وتعقيداً على تعقيد... هنالك يظهر وازع الفطرة ببساطة وبراءته مخاطباً للنفس بأصل الحقيقة ومعيارها.

لعل هذا هو التفسير المناسب – والحقيقي – لحال الغرب الآن، فلا أحد يستطيع إنكار الواقع الغربي الحائر والمضطرب بين هذا الحكم الهائل من الفلسفات المختلفة (مادية ـ عقلية ـ مثالية ـ نفعية ـ حيوية ـ عنصرية.... الخ)، والآراء والأفكار المتباينة والمتضاربة والمتناقضة والمتغيرة... الخ.

ولعل رجوع الغربيين إلى التدين (في الحقبة الزمنية الأخيرة) يعبر في مضمونه الكلي عن أمرين:

<u>الأمر الأول</u>: أن هذه الفلسفات قد أخفقت في حل مشكلات المجتمعات الغربية، خاصة تلك المشكلات المتعلقة بالإنسان من حيث هو (إنسان).

<u>الأمر الثاني</u>: أن الغربيين يريدون أن يستريحوا من هذا العراك الفكري والفلسفي – المادي في معظم مفرداته – الشديد، بمبادئ وأصول دينية، تخاطب الإنسان كإنسان (مخلوق لله)، صنعته تعالى وإرادته، وتخاطب أصل فطرته وخِلقته، وتعمل على نفعهم جميعاً – فرادى وجماعات وأمم وشعوب – ويقف الجميع منها موقف الاحترام والتقديس.

إن أهم ما يتميز به المتدينون بوجه عام: أنهم جميعاً – مع اختلافهم في بعض المفردات والتفصيلات ـ يقفون أمام أصولهم ومعتقداتهم الدينية بمهابة وعبودية وخشوع، وتلك الأمور الهامة تفتقدها جميع الفلسفات على ظهر الأرض بلا شك.

فكثرة وتعدد الآراء والفلسفات في المجتمعات، وعلى الرغم من كونها إثراءً للحياة الفكرية والجانب الفلسفي والعقلي، إلا أنها تعتبر من أهم أسباب الرجوع إلى التدين، وظهور المرحلة الجديدة الحالية والمسماة: (ما بعد العلمانية).

يقول الأستاذ يوسف كرم في مقدمة كتابه (تاريخ الفلسفة الحديثة): ((.... تلك خصائص عصر النهضة، وهي هي خصائص العصر الحديث إلى أيامنا، نستطيع أن نردها إلى اثنتين: الفردية العنيفة في الأدب والدين والسياسة، والعناية البالغة بالعلم الآلي... فتكون هناك فلسفة إلحادية، وتكون فلسفة تتحدث عن الروحانية والمسيحية ولا تعني سوى مجرد عاطفة دينية، وتكون فلسفة تشيد بالعلم الآلي وتحصر مجالها على قدر مجاله، أو تجتمع هذه الوجهات المختلفة في بعض المذاهب مع تفاوت بينها، وتظل الأجيال إلى الآن حائرة مترددة، تعتنق المذاهب وتخلعها الواحد بعد الآخر، وتستبدل نظاماً من الحياة بنظام))[١].

إلى أن سئمت من تلك المذاهب والأنظمة المتعددة والمتكاثرة – بتعقيداتها، ومعضلاتها، وتحيزها – ورجعت تبحث في لهفة وتشوق إلى تدين ينقذها ويأخذ بيدها إلى ما غفلت عنه قروناً متعاقبة!

ثم نجد الأستاذ يوسف كرم يذكر تعدد الفلسفات ومذاهبها وفلاسفتها على مر العصر الحديث، ما بين فلسفة مادية، وأخرى نفعية؟، وثالثة عقلية... الخ، ثم يقول في النهاية: ((ولا ندري ما إذا كانت العقول العصرية تأخذ أنفسها بمثل هذه الفلسفة، أو تمضي في محاولاتها العقيمة))[٢]. ثم يقول في نهاية كتابه: ((وإن عصرنا الحاضر، على تضارب الآراء فيه، توَّاق إلى فلسفة تكفل الأخلاق والدين))[٣].

---

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم صـ٧٠.

(٢) السابق صـ٩.

(٣) السابق صـ٤٦٣.

يبدو واقعاً الآن أنها لن تمضي في محاولاتها العقيمة، لقد مضت في محاولات أخرى بعيدة عن حقول الفلسفة المتباعدة والمترامية الأطراف، وبعيدة أيضاً عن العلمنة وأطرها المادية والنفعية الخالصة، مرحلة تدين جديدة تؤرخ لما بعد العلمنة.

ويؤيد هذا الكلام ما ذكره الفيلسوف البريطاني المعاصر جود (١٨٩١ – ١٩٥٣)، حيث قرر في كتابه (فصول في الفلسفة ومذاهبها)، عدم الانتفاع الحقيقي بتلك المذاهب الفلسفية المتعددة، حيث يقول: ((الفلسفة ليست كغيرها من المسكنات التي تتعاطاها الإنسانية لتخدير الصداع... والفلسفة لا تقيك من الأخطاء الداهمة التي تتعرض لها بحكم وجودك في مجتمع كبير، فهي لا تشفيك من الوحدة المملة، ولا تُبعد المخاوف التي تقصي مضجعك، كما أنها ليست ملجأ يعتصم به الإنسان إزاء موجة الاضطرابات المتزايدة التي هي مظهر من مظاهر عالمنا الحاضر))[1].

تلك هي الفلسفات والمذاهب المتعددة، والتي ضل الإنسان الغربي متردداً وحائراً بين جنباتها، وما وجد منها شيئاً ينقذه من هذا الاضطراب الذي كاد أن يفتك به ـ وإن كان قد نال منه بالفعل ـ وها هو يدرك بعد طول زمان أنها عديمة النفع، وعاجزة كل العجز عن الوفاء بمتطلباته واحتياجاته كإنسان له جوانب متعددة (عقلية ـ روحية ـ مادية ـ اجتماعية ـ سياسية) يجب أن تراعى، وتؤخذ في الاعتبار جيداً، مع التوافق والتناغم التام فيما بينها.

(١) فصول في الفلسفة ومذاهبها، جود، ترجمة / عطية محمود، ماهر كامل صـ٢٨.

الفصل الثاني
مرحلة ما بعد العلمانية

تمهيد

لا شك أن التأريخ لمرحلة معينة عادة ما يكون غير يقيني، وغير متفق عليه، وليس هذا عيباً يُرد به هذا القول، بل تلك هي طبيعة التأريخ وصفته، خاصة إذا كانت هذه الحقبة التاريخية تعبر عن أفكار واتجاهات أخلاقية وفلسفية، لأن هذه الأفكار والاتجاهات لا تُكَون بين عشية وضحاها، أو تكتب لها شهادة ميلاد في وقت معين!!

فالتحولات الفكرية والأخلاقية والدينية... الخ، دائماً ما تحتاج إلى سنوات وسنوات حتى تستقر في مجتمعاتها، وتصبح صفة ملازمة ونسق عام لأفراد تلك المجتمعات. وإذا كنا اليوم بصدد الحديث عن مرحلة جديدة للغرب عموماً، **فثمة أمور لابد من الإشارة إليها:**

* أن تلك المجتمعات الغربية متعددة ومختلفة من حيث اللغة والتاريخ والثقافة والأخلاق والطباع... الخ.

* أن تلك المجتمعات الغربية – وإن كانت نصرانية في الغالب – إلا أنها تحوي على الكثير من المذاهب الدينية والاتجاهات اللاهوتية المختلفة، فضلاً عن الإلحاد الذي لا يكاد يخلو منه مجتمع من هذه المجتمعات، بالإضافة إلى الإسلام الذي فرض نفسه بقوته الذاتية حديثاً.

* أن الإعلام الرسمي لتلك المجتمعات قد يخفي الكثير من الحقائق المتعلقة بالتدين – خاصة لو كان متعلقاً بالإسلام – حفاظاً على علمانية الدولة، ولمآرب سياسية أخرى قد تبدو خبيثة في بعض الأحيان!

* ربما يكون الاعتراف لدى الغرب ببزوغ فجر (مرحلة ما بعد العلمانية)، أو (مرحلة التدين الجديدة)، أو (مرحلة أفول العلمنة)، أياً ما كان مسماها... قد يبدو

خطيراً للغاية، فثمة مشكلات متعددة قد تلحق بهذه المجتمعات، خاصة وأن علمنتها غير قابلة للنقاش أو التفاوض أصلاً.

* أن تغير المجتمعات الغربية – أو إحداها – في الاتجاه العام، وصبغة تلك الدولة أو غيرها بصبغة معينة رسمياً واجتماعياً وواقعياً، لن يحدث قبل سنوات، ربما تكون طويلة وممتدة شيئاً ما، ولكن ما يمكننا القطع به أن مرحلة جديدة أطلق عليها كثير من فلاسفة الغرب (ما بعد العلمانية) ظهرت مؤخراً، وتزداد ظهوراً يوماً بعد يوم، وتتسع قاعدتها لتبدد العلمنة شيئاً فشيئاً.

* لابد من الإشارة – وبأهمية – أن أفول العلمنة، وظهور (ما بعدها)، يختلف من مجتمع لآخر، طبقاً للاختلاف والتنوع الذي ذكرته سابقاً، فالمجتمع الأمريكي (مثلاً) أكثر تديناً من المجتمع الأوربي عموماً، والاتجاه الديني لدى الفرنسيين في الآونة الأخيرة يزداد بشكل كبير عن غيره من مجتمعات أوربية أخرى، وهكذا.

* أن العلمنة الغربية في القرون الماضية – مع سطوتها وسيطرتها وشموليتها – لم تستطع أبداً إماتة التدين أو نزعه من الصدور، فالدين لازال موجوداً على مر تلك القرون الماضية، وإن كان قد تعرض لانتكاسات لا حصر لها.

* أن المجتمع ـ أي مجتمع ـ يتسع وبدون مشكلات لتعايش العلمانيين والمتدينين في آن واحد، وأن تلك الحالة ليست غريبة ولا فريدة من نوعها، فمجتمعات كُثر تتسم بتلك الصفة، طالما كانت الديمقراطية والمساواة واحترام الآخر منهجاً عاماً للحياة فيها، وتلك الحالة – من المتوقع– أن تسود المجتمعات الغربية في الفترة الآنية والمستقبلية، وقد يتمثل في المستقبل القريب مرحلة انتقال بين علمنة هذه المجتمعات و(ما بعد العلمانية).

*** الأصول الدينية لدى الغرب:**

وتجدر الإشارة الآن إلى الأصول الدينية المستقرة لدى الغرب، وأن ثمة وجوه متعددة للتدين في المجتمعات الغربية كانت ولا زالت موجودة حتى الآن، وأن علمنة

تلك المجتمعات – على طول مدتها – لم يستطع محو تلك الأصول الدينية والمعتقدات والطقوس المختلفة.

وربما كانت الأصول والمعتقدات وغيرها بمثابة الحاضنة الطبيعية المستقرة لمرحلة (ما بعد العلمانية)، تماماً مثلما حدث في العصور الوسطى، من أصول علمية، ومعتقدات تنويرية، وأفكار ديمقراطية وليبرالية، كانت بمثابة الحاضنة الطبيعية لمرحلة (العلمنة) التي بزغ فجرها في مطلع عصر النهضة، واستقرت منهجاً للحياة طوال العصر الحديث، وحتى الآن.

فقد ثبت خطأ قول الفيلسوف الألماني "فردريك نيتشه" بموت الإله! وقد كان يقصد أن التدين عصر قد انتهى وواراه التراب، وأن علمنة أوربا قد طغت على ما سواها من مذاهب وأفكار، وأيضاً أقوال أمثاله من الفلاسفة الماديين والملحدين الغربيين في تلك الحقبة الزمنية، وما قبلها أيضاً.

فالتدين مستقر في نفوس الغربيين على مدار القرون السابقة، مع طغيان العلمنة وسطوتها وتغلغلها إلى أدق مفاصل تلك المجتمعات، وهذا أمر طبيعي طالما أن التدين فطرة في الإنسان.

يقول الدكتور حميد لشهب في بحثه المعنون (ما قبل "ما بعد العلمانية") تحت عنوان: (الواقع الفعلي لتطبيقات العلمانية في الغرب):

– كل المملكات والإمارات الأوروبية مؤسسة بدهياً على "انتمائها المسيحي" الواضح، بل لها قساوسة القصور، وكنائس معينة لصلاة يوم الأحد، أو أيام الأعياد.

– في كل الدول الأوروبية هناك أحزاب سياسية تمثل القيم المسيحية وتدافع عنها في برامج انتخاباتها، وتحاول إدخال "الله" في الدستور الأوروبي بكل الوسائل.

– تخصص الكثير من البلديات الأوروبية، نصيباً من ميزانيتها لترميم الكنائس والأديرة، من غير حرج و لا مناقشات.

– تمنح الكثير من الحكومات الغربية مبالغ مالية جَدُ مهمة سنوياً لمنظمات إحسانية اجتماعية دينية لمزاولة أنشطتها الخيرية داخل بلدانها و خارجها... وطبعاً في كل أنشطتها سراً أو علناً نفحة تبشيرية دينية.

– عند إنهاء بناء الكثير من المنشآت العمومية، مدارس، مسارح، مستشفيات... الخ. يبارك القساوسة هذه المنشآت في الكثير من الدول الأوروبية جنباً إلى جنب مع الساسة والمنتخبين.

– يبدأ الموسم الدراسي وينتهي في الكثير من الدول الأوروبية بقداس ديني....

– تنقل صلوات الأحد أو الأعياد الدينية على شاشات التلفزات العمومية.

– استمرار تعليم الدين (ونعني المسيحي) في المدارس العمومية في الكثير من الدول الأوروبية.

– تعميد أغلبية الأوروبيين أبنائهم في الكنائس، على الرغم من ادعائهم الإلحاد....

– البرنامج السنوي للعطل الرسمية في الغرب مليء بالعطل الدينية....

مـا يمكـن تأكيـده أن الـدين لـم يفـارق العلمانيـة، ولـم تفـارق العلمانيـة الـدين فـي الغرب)[1].

أضف إلى ذلك أن الصلبان لم تتغيب أبداً عن صدور الكثير من الغربيين عموماً، فضلاً عن رسمها على أعلام دول غربية متعددة مثل: (آيسلندا – الدانمارك – سويسرا – السويد– فنلندا – المملكة المتحدة – النرويج)[2] وغيرها.

فضلاً عن المؤسسات العلمية العليا المختصة بدراسة الأديان واللغات والثقافات والحضارات الأخرى (وخاصة الإسلام واللغة العربية)، وهي ما تعرف بالدراسات الاستشراقية، وهي منتشرة بكثرة في البلدان الغربية كلها.

---

(١) ما قبل وما بعد العلمانية، حميد لشهب، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ١٤٨.

(٢) أطلس العالم، مراجعة / إبراهيم حلمي الغوري صـ٩٦.

بالإضافة للحملات التبشيرية على مستوى العالم، والممولة بمليارات الدولارات!

ألا يعتبر ذلك كله بمثابة الحاضنة الطبيعية والمنطقية لمرحلة (ما بعد العلمانية).

ألا تعتبر (الفطرة)، (التي تحدثنا عنها سابقاً) بمثابة البذرة الكامنة في الأرض تنتظر المطر حتى تنبت وتظهر فوق ظهر الأرض بسيقانها وفروعها وأوراقها وثمارها؟!

أليست العلمنة تعمل جاهدة على إخماد الفطرة وإطفاء نورها؟

وفي ذلك يقول كلود أندرية: ((هذا ما لاحظه الكاتب الفرنسي الشهير "أندريه مالرو" الذي أكد أن ديكتاتورية العلمانية تتعارض بالكامل مع متطلبات الفطرة... الجميع يعلم بأن مذهب العلمانية هو خصم الفطرة، الذي يريد تجريدها من أي علاقة بحضارة التوحيد الأسمى، لكن في جميع الأحوال؛ لتأثير مذهب العلمانية الذي أوجده الإنسان حدود، إذ يتسم بسرعة زوال كافة المذاهب المزيفة في الدائرة العالمية...))[1]، وهذا شأن كل المذاهب التي تعارض الأديان.

لكن في النهاية، لابد من انتصار الفطرة مهما اشتدت وطأة العلمنة وسيروراتها المختلفة على كل حال.

((وذلك يدل على وجود منفسحات معرفية (ذات وزن) داخل البيئة الغربية، كانت ولا تزال ترى بهدوء موقعية الإيمان الحاسمة في وجدان الأفراد والحضارات... وهذا ما لاحظه اللاهوتي والفيلسوف الألماني "بول تيليتش" بقوله: أن ليس ثمة تضاد بين الإيمان في طبيعته الحقيقية، والعقل في طبيعته الحقيقية، وأن ليس ثمة صراع جوهري بين الإيمان بالوحي والوظيفة الإدراكية للعقل، فالصراع في حقيقته لم يكن بين الإيمان والعلم.... لقد كان صراعاً بين علمٍ يجرد إيمان الإنسان من إنسانيته،

(١) من إرهاصات العصر، ثورة الفطرة ضد ديكتاتورية العلمانية، كلود أندرية، ترجمة /منار درويش، فصلية الاستغراب، عدد٢، صـ١٨٥.

وإيمان حَوّله لاهوت السلطة إلى أيديولوجيا، ومن ثَمَّ إلى حرب مفتوحة على العقل))[1].

*** بداية التأريخ لمصطلح أو مرحلة (ما بعد العلمانية):**

تبين المعطيات الحديثة أن المراجع التأسيسية لمصطلح (ما بعد العلمانية) تنحصر في أعمال بحثية صدرت بعد العام ٢٠١٠م، وهذه الأعمال هي حصيلة مؤتمرات خصصت لتظهير هذه القضية...[2].

ويرجع ذلك المسمى (ما بعد العلمانية) إلى المفكر والفيلسوف الألماني المعاصر "يورغن هابرماس"، والذي تحدث عن ذلك مرات عديدة في كتبه ومقالاته ومحاوراته ومحاضراته.

وهذا الأمر لا يستدعي أبداً أن هابرماس هو من اخترع تلك المرحلة، أو اكتشفها دون غيره من فلاسفة الغرب ومفكريهم، بل غاية الأمر أن هابرماس قد عنون لتلك المرحلة بهذا المسمى (ما بعد العلمانية)، والذي ذاع صيته في الآفاق الغربية على العموم، وإن كان قد تحدث عن ذلك الأمر الكثير من الفلاسفة والمفكرين، وعلماء الدين، وعلماء النفس، والساسة الغربيين.

ومن أبرز من تناول مرحلة (ما بعد العلمانية) بالبحث والرأي والإضافة؛ خوزيه كازانوفا، وبيتر برغر، وكريستينا شتوكل، وإدغارموران، وردني ستارك، وجان مارك لاروس، ونوربير بيلا، وروجيه مونجو، وأول ويفر،... وغيرهم كثير.

ومما لا شك فيه أن هؤلاء الفلاسفة والمفكرين والعلماء وأمثالهم، قد أثروا بمناقشاتهم ومحاوراتهم المتعددة، فضلاً عن أبحاثهم الفلسفية والدينية والاجتماعية فكرة (ما بعد العلمانية)، وأظهروها من جوانب متعددة، ومن خلال مجتمعات متعددة أيضاً على أطر وأنظمة بحث مختلفة.

---

(١) ما بعد العلمانية، محمود حيدر صـ١٩٤، وراجع بول تيليتش، بواعث الإيمان.

(٢) السابق صـ١١.

((وهو الأمر الذي ولَّد احتداماً فكرياً غير مألوف مؤداه: أن العصر العلماني قد بلغ منتهاه، وأن العالم الأوربي المعاصر دخل في واقع جديد لم يعد فيه الكلام عن العلمانية بمعناها الكلاسيكي أمراً جائزاً، بعد فرضية هابرماس القائلة: (إن العالم الأوربي بات يعيش في مجتمع بعد علماني).. ونظمت الكثير من المؤتمرات، فعقد مؤتمر في جامعة هارفارد تحت عنوان (استكشاف ما بعد العلماني) عام ٢٠٠٩م، وعقد مؤتمر في جامعة واشنطن بعنوان (النقاش حول العلمانية في عالم ما بعد علماني) عام ٢٠١٠م، بالإضافة لمؤتمر ثالث في جامعة بولونيا بعنوان (السياسة والثقافة في المجتمع ما بعد علماني) عام ٢٠١١م))[١].

ويجدر بنا الآن بيان البعد الحقيقي والجوهري لـ (ما بعد العلمانية)، وبيان الملابسات والتحليلات والفهوم المختلفة حولها من خلال فلاسفتها ومنظرييها، فضلاً عن الدارسين والمهتمين بتلك القضية من الباحثين والعلماء المختصين بهذا الشأن.

وربما يكون من الصعب حصر هؤلاء الفلاسفة والعلماء والمختصين في أطروحة بحث كتلك التي بين أيدينا الآن، ولكن يكفينا في هذا المقام الكشف عن آراء أبرز فلاسفة هذه القضية ومنظريها، وباحثيها الذين اهتموا بها اهتماماً خاصاً.

*** مرحلة (ما بعد العلمانية) في فكر فلاسفتها:**

يورغن هابرماس

لقد بات واضحاً – من خلال مناقشاتي السابقة – أن الفيلسوف والمفكر الألماني "يورغن هابرماس" هو الأحق بصدارة منظري وفلاسفة (ما بعد العلمانية).

وإن كان قد استفاد من بيتر برغر، وخوزيه كازانوفا، وخاصة هذا الأخير صاحب كتاب (الأديان العامة في العالم الحديث)، والذي كان داعماً أساسياً لهابرماس في تأسيس نظريته (ما بعد العلمانية).

---

(١) ما بعد العلمانية، محمود حيدر صـ١٢١، وانظر: ما بعد العلمانية في فكر يورغن هابرماس، آرمان زارعي، ترجمة / أسعد الكعبي.

يقول جيمس جوردن عن هابرماس: يورغن هابرماس واحد من أهم المنظرين الاجتماعيين وأوسعهم انتشاراً في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية، وعكف هابرماس على الكتابة منذ نحو ٥٠ سنة، وله إنتاج فكري ضخم، وإضافة إلى شهرته كمنظر اجتماعي وسياسي، فهو واحد من أبرز المفكرين في هذا الشأن العام في أوربا حالياً... ولد عام ١٩٢٩م، درس الفلسفة وحصل فيها على الدكتوراة عام ١٩٥٤م... ثم عمل أستاذاً للفلسفة في هايد لبرج عام ١٩٦١م... ويعتبر هابرماس (متعهد النظريات الكبرى) فهو يطرح أسئلة كبرى عن طبيعة المجتمع العصري والمشكلات التي تواجهه، والأخلاقيات والسياسة والقانون...[١].

وربما تكون نظرية هابرماس (ما بعد العلمانية) على قدر كبير من التعقيد، نظراً لأن مسألة (ما بعد العلمانية) مرتبطة بمجتمع غربي "أوروأمريكى" على قدر كبير من الاتساع الجغرافي والثقافي والعلمي والاجتماعي والسياسي والأخلاقي... الخ.

ولكن يمكن لنا الإشارة إلى أفكاره العامة والأساسية حول هذا الموضوع قدر المستطاع.

*** التأسيس للمرحلة:**

يقول هابرماس: تلاقت ثلاثة ظواهر متداخلة لتصنع انطباعاً بوجود "طفرة دينية عالمية جديدة" وهي:

أ) تمدد العمل التبشيري.

ب) التحول إلى الراديكالية (*) الأصولية.

---

(١) يورغن هابرماس، مقدمة قصيرة جداً، تأليف / جيمس جوردن، ترجمة / أحمد محمد الروبي صـ٩ وما بعدها بتصرف.

(*) الراديكالية: تعني الجذرية أو الأصولية، ويقصد بها تأسيس المجتمع على جذور وأصول قوية.

جـ) تحويل إمكانية المَيل إلى كوامن العنف المتأصلة في الكثير من أديان العالم إلى أداة سياسية(١).

ثم يشرح هابرماس ذلك ويبين أن التبشير بمعظم الأديان كالهندوسية والبوذية، فضلاً عن الأديان السماوية، ويقرر أن أكثر الأديان انتشاراً هو الإسلام، ثم المسيحية الإنجيلية حيث يقول: أما أكثر أشكال الامتداد الديني حركية فهو الشبكات اللامركزية التي تدعو إلى الإسلام والإنجيليون، حيث تتميز هذه الشبكات بشكل من التدين يثير النشوة، يلهمه قادة أصحاب كاريزما عالية(٢).

ويقول: المجتمعات الدينية لا تزال قادرة على حجز مقعد لها في حياة المجتمعات التي توجهت وبشكل كبير نحو العلمانية، يمكننا اليوم وصف الوعي العام في أوروبا من خلال حيثيات "المجتمع ما بعد العلماني"... فالدين لا ينال المزيد من التأثير على المستوى العالمي فحسب، بل وفي المحيط الوطني العام أيضاً، أنا أفكر هنا في الدور المتزايد الذي تلعبه الكنائس والمؤسسات الدينية في الساحة العامة للمجتمعات العلمانية، كما يمكنهم أيضاً التأثير على الرأي العام، وتشكيل الإرادات من خلال المساهمات ذات العلاقة بالقضايا الأساسية...

أما إذا ما أردنا تقريب النقطة بشكل أقرب إلى بيت القصيد، دعني أذكركم بوضوح وحيوية المجتمعات الدينية الأجنبية، والتي يحفزون من خلالها انتباه الكنائس والتجمعات الدينية المعروفة، فالمسلمون الذين يقطنون بجانبنا يفرضون على المواطنين المسيحيين أن يواجهوا ممارسة لعقيدة منافسة لعقيدتهم وكما يقدمون للمواطنين العلمانيين إدراكاً أفضل لظاهرة وجود عام للدين(٣).

---

(١) المجتمع ما بعد العلماني، تأصيل المعنى والتجربة، يورغن هابرماس، ترجمة د/ ريم اليوسف، فصلية الاستغراب، عدد ٢، صـ٥٠.

(٢) السابق، نفس الصفحة.

(٣) السابق صـ٥٢.

ويبين هابرماس أن الدين ينتزع قوته التشريعية من حقيقة امتلاكه جذوره نفسها، باستقلال عن السياسة[١]. يقصد بذلك البذور المبثوثة في فطر الإنسانية، فلها قوتها في التأثير على النفوس.

ثم هو يرى أن الدين منشأ لكثير من القيم التي تتغيَّاها الحداثة مثل: العدالة، والمساواة، والسلام، والأمن، والسعادة البشرية، وعليه فلا يصح تصنيف موقفه من الدين بأنه اختزالي أو تبسيطي، بل هو موقف جاد يمثل تحدياً للنظريات العلمانية المتطرفة وللطبيعانية[٢].

مما سبق يتبين لنا أن هابرماس يدلل على وجود المجتمع (ما بعد العلماني) بأمور، أهمها: التوسع الكبير في الدعوة إلى الأديان، وخاصة الإسلام، ثم التحول إلى الأصولية وجذور المذاهب والأديان للاستفادة منها، فضلاً عن استغلال البعض لحركات العنف المنسوبة لبعض الأديان (وخاصة الإسلام على حد زعمه) لمعرفة أصول هذه الأديان وعقائدها، ولعل ما حدث بعد حادثة (١١ سبتمبر) في الولايات المتحدة يؤيد ما ذهب إليه.

ويمكننا أن نلحظ في كلامه شيئين مهمين:

الأول: اعتماده وتعويله على قوة الدين الذاتية وقدرته على جذب الآخر.

الثاني: التلميح أكثر من مرة إلى الإسلام على الخصوص، وعلى مدى انتشاره وحضوره.

ثم بين هابرماس بعد ذلك سبباً آخر للتواجد الديني في العالم العلماني، وربما سيطرته على معظم العالم أيضاً من خلال الهجرات المتكاثرة والتلاقح بين الأفكار

---

(١) المجتمع ما بعد العلماني، تأصيل المعنى والتجربة، يورغن هابرماس، ترجمة د/ ريم اليوسف، فصلية الاستغراب، عدد ٢، صـ٢٩.

(٢) دور الدين في الفضاء العمومي، دراسة في تطور رؤية هابرماس الفلسفية، حسين غفاري، معصومة برهام، ترجمة/محمد حسن زراقط، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٩٣.

والثقافات، وبالتالي انتشار الفكر الديني على نطاق واسع جداً ((فيبين أن الدين يمر بمرحلة استعادة سيطرته على المجتمعات البشرية في شتى أرجاء العالم... حيث انتعشت الحياة الدينية الشعبية من جديدٍ بعد التلاقح الثقافي الواسع الذي حصل بين المجتمعات التقليدية والحديثة... والفضل في ذلك يعود إلى الهجرة الواسعة التي شهدتها البشرية في العصر الحديث، إذ إن إحدى نتائج هذه الهجرة تتمثل في اتساع رقعة المعتقدات الدينية وشيوعها في الأوساط الرسمية، وإثر ذلك تلاقحها مع النزعات الوطنية، فالمعتقدات الدينية لم تكن واضحة لدى بعض المجتمعات... وبالتالي إحياء الدين وترويج تعاليمه))[١].

ثم هو يبين وبلا شك أن التدين يعتبر الدعامة الأساسية لقابليات الحياة البشرية، لذلك تمكن من التغلغل في جميع منافذ الحياة الفردية والاجتماعية، ومواكبة الإنسان في كل خطوة يخطوها، أو نفسٍ يستنشقه، لذا فالمجتمعات المتدينة عادةً ما ترفض أي تغييرٍ أو تحوّل في المباني السياسية خارج نطاق دينها، لأن معتقداتها ترغمها على تسرية أصولها الدينية في كل فعلٍ ونظريةٍ من غير استثناء[٢].

العلاقة بين الدول الدستورية العلمانية والحداثة من ناحية، والاتجاه الديني المتمثل في (ما بعد العلمانية) من ناحية أخرى ومساعدة الدين للحداثة من وجهة نظر هابرماس.

ويمكن لنا أن نقول أنها دعوة من قبل هابرماس للتعايش بين العلمنة كوضع أساسي في الدول الدستورية، والتدين المتنامي كظاهرة جديدة، ومساعدته للحداثة.

وفي هذا الشأن يقول هابرماس في كتابه "جدلية العلمنة": ((وهكذا يظهر اليوم من جديد صدى نظرية تؤكد بأن الدين وحده هو الذي يمكنه أن يساعد الحداثة

(١) ما بعد العلمانية في فكر يورغن هابرماس، آرمان زارعي، ترجمة / أسعد الكعبي، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٧٨.

(٢) السابق صـ١٨٦.

المتكسّرة، بتأسيسها على أساسٍ متعالٍ من أجل إخراجها من المأزق الذي توجد فيه...

ومن مصلحة الدول الدستورية أن تتعامل بلياقة مع كل المصادر الثقافية، التي يتغذى منها الوعي القيمي والتضامني، وينعكس هذا الوعي المحافظ عند الحديث عن (ما بعد المجتمع المدني)، لا نعني من كل هذا فقط بأن الدين قد استطاع أن يؤكد نفسه في محيط أصبح علمانياً أكثر فأكثر، وبأنه يجب على المجتمع أن ينتظر إلى حين استمرار ظهور الجماعات الدينية، ولا يقر تعبير (ما بعد العلماني) للجماعات الدينية بالاعتراف العلني بها، لمساهمتها الوظيفية التي تقدمها في إنتاج الدوافع والتصورات... ويمكن للمجتمع العلماني وللدين على حد سواء إذا ما فهما علمانية المجتمع كصيرورة تعلم متكامل، أن يقدما مساهمتهما فيما يتعلق بالمواضيع التي يختلف عليها الناس في الحياة العامة، وكذلك ـ ولأسباب عقلية ـ أن يأخذ كل واحد منها الآخر محل الجد))[1].

ويقول أيضاً في كتابه "مستقبل الطبيعة الإنسانية": ((يصطدم المواطنون سواء كانوا مؤمنين وغير مؤمنين بعضهم ببعض من خلال القناعات التي كونوها عبر رؤيتهم للعالم، ويجرّبون تعددية النظرة إلى العالم، فإذا تعلموا التكيف مع هذا الواقع، وقد وعوا بإمكانية الوقوع في الخطأ، إذاً وبدون كسر الرابط الاجتماعي للجماعة السياسية، فإنهم سيميزون ما تعني الأسس العلمانية للقرار كما هي في الدستور في إطار مجتمع "ما بعد علماني"، وحين تدخل الادعاءات التي يقدمها العلم وتلك التي يقدمها الإيمان في صراع، فإن الدولة بحياديتها تجاه رؤى العالم لا تقرر موقفاً مؤيداً ـ إطلاقاً ـ لهذه الفئة أو تلك...))[2].

---

(١) جدلية العلمنة، العقل والدين، يورغن هابرماس، وجوزف رانسينغر، ترجمة د/ حميد لشهب صـ٥٥، ٥٩.

(٢) مستقبل الطبيعة الإنسانية، نحو نسالة ليبرالية، يورغن هابرماس، ترجمة د/ جورج قتورة صـ١٢٧.

ثم يبين مدى الدفاع عن الأفكار الدينية ـ متمثلة في المؤمنين بها ـ من المواطنين العلمانيين عبر سلطة الدولة، فيقول: ((ولا يتطابق التصور المحايد للعالم من طرف سلطة الدولة، التي تضمن الحرية الأخلاقية نفسها لكل مواطن، مع التعميم السياسي لمنظور علماني للعالم، لا يحق للمواطن العلماني ـ طالما أنه يقدم نفسه في دوره كمواطن ـ أن ينكر الصحة الممكنة للتصورات الدينية حول العالم، ولا حرمان المواطن المؤمن من حقه في التعبير بلغة دينية، وطرح مواضيع للمناقشة عمومياً، ويمكن للثقافة العلمانية الليبرالية أن تنتظر من المواطن العلماني أن يجتهد من أجل ترجمة الدراسات الدينية المهمة إلى لغة عمومية واضحة بالنسبة للجميع))[1].

ربما يكون هذا الجانب من فلسفة هابرماس حول (ما بعد العلمانية) وهو طرحه لأسس التوفيق بين العلماني والديني تحت سلطة دستورية الدولة، خطيراً جداً، فضلاً عن تنبئه باحتياجات العالم الغربي لتلك التنظيرات المهمة والأساسية في عالم مفروض عليهم لا محالة، قد بدت بوادره في الظهور الواحدة تلو الأخرى.

ونؤكد ما سبق ـ في هذا الجانب ـ في نقاط أساسية كما بينها هابرماس:

– من مصلحة الدولة الدستورية أن تتعامل باحترام مع كل أطياف الثقافات العامة، ومنها الدينية.

– أن الاتجاه الديني قد فرض نفسه على الساحة، وأن (ما بعد العلمانية) قد بدت للجميع، ومن المصلحة العامة أن تتفهم الدولة العلمانية هذا الأمر.

– يمكن للمجتمع العلماني والديني أن يتكاملا، ويستفيدا من بعضهما في الحياة العامة.

---

(١) جدلية العلمنة، العقل والدين، يورغن هابرماس، وجوزف رانسينغر، ترجمة د/ حميد لشهب صـ٦٢.

– يجب على العلمانيين والمؤمنين أن يتفهما جيداً " التعددية العالمية " بدون كسر الرابط الاجتماعي لوحدتهم السياسية.

– حيادية الدولة هي الفارقة بين ادعاءات العلم، وادعاءات الإيمان.

– لا يحق للمواطن العلماني حرمان المواطن المؤمن من حقه في التعبير عن معتقداته الدينية، بل وطرح موضوعات للمناقشة العامة.

ثم يبين ذلك في موضع آخر فيقول: ((الدولة الدستورية قادرة على أن تضمن لمواطنيها المساواة في الحرية الدينية تحت شرط ألا يحبسوا أنفسهم ضمن مجتمعاتهم الدينية، ويحجبوا أنفسهم عن بعضهم البعض، كان من المتوقع من جميع الثقافات الفرعية أن تطلق سراح أعضائها حتى يتعرفوا على وجود بعضهم البعض كأعضاء في مجتمع مدني واحد، يعطي المواطنين قوانين كهذه، والتي بفضلها يتمتعون بحق الحفاظ على هويتهم في سياق ثقافتهم المحددة ونظرتهم إلى العالم الخاصة بهم، إن العلاقة بين الحكومة الديمقراطية والمجتمع المدني والحفاظ على الثقافات الفرعية هو المفتاح الفعال للفهم الصحيح، لأن المشروع الخاص بالتنوير السياسي العام لا يتناقض مع الحساسيات الخاصة ضمن تعددية ثقافية مطبقة بشكل صحيح))[1].

فطالما بقي التراث الديني والمنظمات الدينية قوى حيوية في المجتمع، لا يمكن لفصل الدين عن الدولة في السياق الدستوري الليبرالي أن يؤدي إلى إزالة تامة للتأثير الذي يمكن أن تمارسه الجماعات الدينية على السياسة الديمقراطية، وللتأكيد تقتضي علمنة سلطة الدولة دستوراً حيادياً بين الرؤى الكونية، وعدم انحياز للقرارات الجمعية الملزمة الصادرة عن دستور في مواجهات مجموع الرؤى الكونية والأديان المتنافسة، لكن الديمقراطية الدستورية التي تتيح للمواطنين ممارسة حياة دينية بوضوح، لا تميز في

(١) ما بعد العلمانية في فكر يورغن هابرماس، ترجمة / ريم اليوسف، فصلية الاستغراب، عدد ٢، صـ٥٥.

الوقت نفسه ضد هؤلاء المواطنين في دورهم بوصفهم شركاء ديمقراطيين في التشريع(١).

وبهذا تكون رؤية هابرماس في علاقة الدول الدستورية برعاياها سواءً كانوا علمانيين أو مؤمنين، وعلاقة هؤلاء العلمانيين بالمؤمنين قد اتضحت تماماً.

والحق أن هابرماس قد ناقش هذه القضية باحترافية بالغة، ومستندة في المقام الأول على الدستورية والديمقراطية، لضمان حفظ الحقوق والمبادئ التي نادى بها.

*** موقع الإسلام في معترك (ما بعد العلمانية) من وجهة نظر هابرماس:**

ذكرت سابقاً قول هابرماس:... المسلمون الذين يقطنون بجانبنا يفرضون على المواطنين المسيحيين أن يواجهوا ممارسة لعقيدة منافسة لعقيدتهم، وكما يقدمون للمواطنين العلمانيين إدراكاً أفضل لظاهرة وجود عام للدين.

وقوله أيضاً: أما أكثر أشكال الامتداد الديني حركية، فهو الشبكات اللامركزية التي تدعو إلى الإسلام.

هكذا أصبح للإسلام مكانة وسط هذا الركام من الأفكار البالية، بحيث صار يُحترم ولأتباعه رأيهم المستقل.

فمما لا شك فيه أن هابرماس لم يستطع أبداً أن يفصل الإسلام عن هذا المعترك الكبير الذي يشهده الغرب متمثلاً في ملحمة "ما بعد العلمانية"، لأن دور الإسلام أظهر وأوضح وأكبر من أن يُغْفل، أو يُسدل الستار عليه من أي أحد، فضلاً عن فيلسوف كبير، أقواله ملء السمع والبصر في الغرب، مثل هابرماس.

ولقد وقفت كثيراً عند عبارة هابرماس الأولى، معجباً من تلك الصياغة الرائعة، وسعيداً بها في آن واحد، فتلك العبارة تحمل معنيين:

---

(١) هذا سبيلنا إلى مجتمع عالمي (ما بعد علماني) حوار لها برماس أجراه معه إدوارد مندياتا، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٣٠.

الأول: أن المسلمين بعقيدتهم ألزموا المسيحيين بمواجهتهم، طبعاً وبلا شك؛ نظراً لقوة وتماسك وحقية العقيدة الإسلامية التي لا نظير لها على الإطلاق.

والثاني: وهو الأهم، أن المسلمين قدموا للعلمانيين عقيدة جعلتهم يدركون ظاهرة (الوجود العام للدين) بطريقة أفضل.

ولو لم يتحدث هابرماس عن الإسلام إلا بهذه العبارة لكفاه وكفانا!، ولكن نجد العبارة الأخرى لا تقل أهمية عنها، حيث قرر أن الشبكات اللامركزية الداعية للإسلام هي الأكثر حركية في تمددها الديني في المجتمعات الغربية.

وفي موضع آخر، ورداً على سؤال من لإدوارد مندیات حول الاستفسار عن الإسلام في أوربا و "المجتمع بعد العلماني"، آثر هابرماس أن يتحدث عن المسلمين بوصفهم بالمهاجرين، وبين وجود علاقة على وجه التأكيد بين نشوء الوعي ما بعد العلماني، والتدفق الجديد للمهاجرين(١).

وفي إطار الحديث عن "النهضة الإسلامية العالمية" يبين هابرماس أن ظاهرة النهضة الإسلامية العالمية أثبتت قدرة الدين على فهم مختلف الصراعات الأيديولوجية التي تحدث في العالم بشكل دقيق، ولاسيما تلك التي لها صلة بالخلافات الدينية(٢).

ولا أحب أن أطيل الحديث في هذا الجانب لأني قد خصصت له فصلاً مستقلاً من هذا البحث، ولكني وضحت رؤية هابرماس في حينها لأهميتها، خاصة وأنها شهادة للإسلام من مثله.

وفي نهاية هذا المبحث عن هابرماس وآرائه في (ما بعد العلمانية) أذكر قوله: ((.... حركة حياة: "ما بعد العلمانية" تمكّن الدين في رحابها من استعادة سلطته

---

(١) هذا سبيلنا إلى مجتمع عالمي (ما بعد علماني) حوار لها برماس أجراه معه إدوارد مندياتا، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٢٧.

(٢) ما بعد العلمانية في فكر يورغن هابرماس، آرمان زارعي، ترجمة / أسعد الكعبي، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٧٨.

وصبغته الاجتماعية الشاملة، في حين أن العلمانية كانت خلاف ذلك تماماً، فقد أصبحت تواجه مصيراً يكتنفه الغموض في شتى أرجاء العالم لأن شبح الأفول بدأ يخيم عليها، ويزعزع أركانها الهشة من أساسها))[١].

خوزيه كازانوفا

يعتبر الفيلسوف الأمريكي – من أصل إسباني – خوزيه كازانوفا من أوائل المبشرين والمنظرين لمرحلة (ما بعد العلمانية)، وخاصة في كتابه الشهير "الأديان العامة في العالم الحديث"، وقد ذكرت سابقاً أن الفيلسوف الألماني الشهير "يورغن هابرماس" قد استفاد كثيراً من أفكار كازانوفا بعد مطالعته لكتابه السالف الذكر.

يقول أحد الباحثين: استند هابرماس إلى الدراسة التي أجراها المفكر "خوزيه كازانوفا" والتي دوّنها في كتابٍ تحت عنوان (الأديان العامّة في العالم الحديث) إذ اعتبرها دليلاً يثبت أن انحسار دور التعاليم الدينية وتنامي الرغبة في الخصخصة الاجتماعية عبر علمنة المجتمعات، لا يدلان بالضرورة على كون الدين قد افتقد قابليته على إدارة المجتمعات البشرية في مختلف المجالات السياسية والثقافية، أو أنه أصبح عقيماً وليس من شأنه تفعيل الحياة الشخصية لكل فرد في المجتمع، فالمفكر "خوزيه كازانوفا" وصف إحياء الحياة الدينية بأنه تعميم للدين وعدم خصخصته[٢].

تلك النقطة "**تعميم الدين وإلغاء خصخصته**" تعتبر هي المحور والمرتكز الأساسي لدى كازانوفا في كتابه (الأديان العامة في العالم الحديث)، فلا شك أن أكثر المجتمعات الغربية تعلمناً – فضلاً عما دونها في العلمنة – لم تستطع في يوم من الأيام عبر تاريخ علمنتها الطويل أن تقتل التدين في نفوس أبنائها، أو تمحوه بالكلية؛

(١) ما بعد العلمانية في فكر يورغن هابرماس، آرمان زارعي، ترجمة / أسعد الكعبي، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ١٧٨.

(٢) السابق صـ١٧٧.

بل العكس، فقد ظل الدين موجوداً في النطاق الخاص بشكل كبير، ثم بدأ يظهر على النطاق العام شيئاً فشيئاً حتى ظهرت تلك الأصوات المنادية بإفساح المجال لتعميم الدين في المجتمعات، ومن أبرز تلك الأصوات المفكر والفيلسوف الكبير "خوزيه كازانوفا".

يقول كازانوفا: قيام التقاليد الدينية باستعادة دورها في الشأن العام وتطويره، وهى التقاليد الدينية نفسها التي افترضت نظريات العلمنة والنظريات الدورية للإحياء الديني أنها قد أصبحت هامشية وغير ذات شأن في العالم الحديث، وفي الواقع أصابت "ماري دوغلاس"(*) إذ قالت: (لم يخطر ببال أحد أن الأديان التقليدية تتمتع بما يكفي من الحيوية لإلهام ثورة سياسية واسعة النطاق). فهذه الدراسة سوف تتمحور حول مقولة أساسية مفادها أننا نشهد ظاهرة "تعميم" الدين في العالم الحديث، أعنى بالتعميم: أن التقاليد الدينية عبر العالم باتت ترفض القبول بالدور الهامشي المخصص الذي حددته لها نظريات الحداثة، وكذلك نظريات العلمنة(١).

ثم يبين كازانوفا أن مسألة "التعميم للدين" ليست حديثة كلياً، بل كان لها جذور سابقة في الماضي، حيث يقول: ولا أعني أن تعميم الدين ظاهرة جديدة كل الجدة، فمعظم التقاليد الدينية قاومت سيرورة العلمنة، بالإضافة إلى الخصخصة والتهميش اللذين ينزعان لمواكبة هذه السيرورة، ولئن قبلت أخيراً هذه التقاليد بهذه السيرورة وتأقلمت مع البني المتمايزة في العالم الحديث، فغالباً ما فعلت ذلك على مضض.

إن الأديان موجودة لتبقى، وبذلك يكون قد تبدد أحد أحلام ما يسمى بعصر التنوير،... والأهم أن الأديان سوف تظل على الأرجح تضطلع بأدوار عامة بارزة في البناء المتواصل للعالم الحديث... والأدوار المحتملة التي قد تؤديها الأديان في النطاق

(*) ماري دوغلاس: كاتِبة وأستاذ جامعي، وعالمة الإنسان، بريطانية، عضو الأكاديمية البريطانية للفنون والعلوم، توفيت ٢٠٠٧م [انظر: موسوعة ويكيبيديا الحرة الالكترونية].

(١) الأديان العامة في العالم الحديث، خوزيه كازانوفا، ترجمة / قسم اللغات الحية والترجمة، جامعة البلمند صـ ١٦.

العام للمجتمعات الحديثة[١].

ولئن كان "هابرماس" يرى أن العلمنة قد سلكت طريقها للأفول، وأنها بدت هاشة ومتهافتة في العصر الحديث، فإن "كازانوفا" يرى أن الأمر ليس كذلك، وأن الدين والعلمنة كلاهما سوف يسيران جنباً إلى جنب، ولابد من العمل على نظريات تتيح لكل منهما أداء أدواره المنوطة به في الإطار العام للمجتمعات.

يقول كازانوفا: ويؤكد التحليل أن مقولة تمايز النطاقين "الديني والعلماني" لا تزال تشكل النواة التي يتسنى الدفاع عنها في نظرية العلمنة، ولكن هذا التحليل يرى أيضاً أنه لا يمكن الدفاع عنها بعد اليوم عن الرأي الذي يعتبر أن التمايز الحديث يؤدي بالضرورة إلى تهميش الدين وخصخصته، أو المقولة المناظرة منطقياً، وقوامها أن الأديان العامة تهدد بالضرورة البُنى المتميزة للحداثة، إننا بحاجة إلى نظريات أفضل حول التداخل بين النطاقين العام والخاص، ونحتاج على وجه الخصوص إلى إعادة التفكير في مسألة الحدود المتغيرة بين النطاقات المتمايزة والأدوار البنيوية المحتملة التي قد يضطلع بها الدين ضمن هذه النطاقات المتمايزة، بالإضافة إلى الدور الذي قد يضطلع به في تحدي هذه الحدود نفسها[٢].

ثم يبين "كازانوفا" تحت عنوان (العلمنة والتنوير، والدين الحديث) أن علم الاجتماع في الآونة الأخيرة أظهر نتائج مختلفة عن الاعتقادات السابقة في شأن العلاقة بين العلمنة والتدين، وأن ثمة آراء لعلماء الاجتماع توضح ذلك، بل وتسخر من المعتقدات السابقة أحياناً.

---

(١) الأديان العامة في العالم الحديث، خوزيه كازانوفا، ترجمة / قسم اللغات الحية والترجمة، جامعة البلمند صـ ١٦، ١٧.

(٢) السابق صـ١٨.

يقول "كازانوفا": من يؤمن بعد بأسطورة العلمنة؟ تدل السجالات التي يشهدها علم اجتماع الدين في الآونة الأخيرة على أن هذا السؤال هو الملائم لمباشرة أي نقاش حالياً لنظرية العلمنة، وبالرغم من إصرار بعض المؤمنين على أن نظرية العلمنة تتمتع حتى الساعة بقيمة تأويلية لا يستهان بها لدراسة السيرورات التاريخية الحديثة، فالسواد الأعظم من علماء اجتماع الدين لن يعيروا هذا الرأي آذاناً صاغية، لأنهم تخلوا عن هذا النموذج، مثلما تبنوه سابقاً في عجالة غير نقدية، وفي الواقع يسخر بعضهم من العقلانيين الذين أطلقوا الكثير من التنبؤات الخاطئة بشأن مصير الأديان، أما وقد تسلح علماء اجتماع الدين بالأدلة "العلمية"، فقد تعززت ثقتهم في التكهن بغدٍ مشرق ينتظر الدين... وهذا "الانقلاب في المواقف" مذهل حين يذكر المرء أن لا أحد كان مستعداً للإصغاء منذ حوالي عشرين عاماً تقريباً.

كيف يسع المرء أن يفسر هذا التحول؟

كيف تعددت الأساطير في السابق، وتوضحت الأمور اليوم؟...

إننا نتعاطى بدون أدنى شك، تغيير جذري في المناخ الفكري والخلفيات الفكرية المعهودة التي تؤكد عادة صحة الكثير من إجماعنا الاجتماعي– العلمي[1].

ويلاحظ أن "كازانوفا" مندهش تماماً من التحول العجيب – والذي سماه انقلاباً – لدى علماء اجتماع الدين في مواقفهم تجاه العلاقة المتداخلة بين العلمنة والدين في تلك المجتمعات..

والأهم من ذلك، إشارته إلى تسلح علماء اجتماع الدين بالأدلة العلمية على صحة ما اعتقدوه من تلك التحولات التي حدثت مؤخراً، والتي كانت قبل حوالي عشرين عاماً مثاراً للتهكم والسخرية!

---

(١) الأديان العامة في العالم الحديث، خوزيه كازانوفا، ترجمة / قسم اللغات الحية والترجمة، جامعة البلمند صـ٢٥.

ثم نجد أن "كازانوفا" – وبعد مناقشات طويلة في كتابه – يؤكد ما قرره سابقاً فيقول: إن ما ادعوه "تعميم" الدين الحديث هو العملية التي يتخلى بوساطتها الدين عن موقعه المحدد في النطاق الخاص والعام غير المتمايز للمجتمع المدني من أجل المشاركة العملية في المسيرة المتواصلة للمعارضة والشرعية الخطابية وإعادة رسم الحدود... وسوف يحتاج الباحثون الاجتماعيين إلى تطوير مقاييس تحليلية ومعيارية للتمييز بين الأشكال المتنوعة من الدين العام ونتائجها السوسيوتارخية المحتملة، إلا الباحثين الاجتماعيين يحتاجون فوق كل شيء إلى الإقرار بأن الدين ما زال يتمتع، وسوف يظل يتمتع أغلب الظن ببعد عام بالرغم من كل القوى البنيوية، والضغوط الشرعية، والعديد من الأسباب المقبولة التي تدفع بالدين في العالم العلماني الحديث إلى داخل النطاق الخاص. ونظريات الحداثة، ونظريات السياسة الحديثة، ونظريات التحرك الجماعي التي تتجاهل هذا البعد هي بالضرورة نظريات غير مكتملة(١).

ولعل تلك المناقشات القوية والجادة من قبل "كازانوفا" هي ما جعل أحد الباحثين في هذا الشأن يقول: ((قد يكون البروفسور خوزيه كازانوفا من أبرز الذين تصدوا لمشكلات العلاقة بين العلمانية والدين وتطوراتهما في المجتمعات الغربية المعاصرة))(٢).

ثم نجد أن "كازانوفا" يبرر قيام الدين بالمجتمعات العلمانية، بإخفاق ـ قوى العلمنة وفقدانها لمعظم قواها ـ على الرغم من تقريره سابقاً أنهما يسيران (العلمنة والدين) بقوى متعادلة في تلك المجتمعات، وأن أزمة العلمنة تتيح للدين مجالاً آخر.

يقول "كازانوفا": وعندما تبدو العقائد العلمانية وكأنها أخفقت أو فقدت معظم قواها، يعود الدين إلى المضمار العام قوة معبئة، أو معيارية تكاملية، ولكن (الدين) الذي

(١) الأديان العامة في العالم الحديث، خوزيه كازانوفا، ترجمة / قسم اللغات الحية والترجمة، جامعة البلمند صـ٩٩.

(٢) ما بعد العلمانية، محمود حيدر صـ٧٨.

يعود بالمعنى المجرد للكلمة، أو يعود في كل مكان، ويمكن لأزمة العلمنة ـ على الأكثر أن تفيد كعامل مشترك يسمح لبعض التقاليد الدينية التي لم تضعفها سيرورات العلمنة كثيراً، بأن تستجيب بطريقتها الخاصة(١).

ومن الجدير بالذكر الآن أن "كازانوفا" قد حدد أشكالاً ثلاثة " لتعميم الدين " في مجتمع حديث ومتقدم مثل "الولايات المتحدة":

١) يتمثل في التعبئة الدينية للدفاع عن العالم التقليدي ضد أشكال نفوذ الدولة أو السوق، مثل الدعوة ضد الإجهاض... فالأديان ترغم المجتمعات الحديثة على التفكير علناً وجماعياً في بُناها المعيارية، عبر دخول هذه الأديان للنطاق العام، وتحفيزها للنقاشات وانتقادها لبعض المسائل.

٢) مساءلة ادعاءات النظامين المجتمعيين الرئيسيين (الدول والأسواق) ونقدهما. وتذكر الأديان الدول ومواطنيها بالحاجة الإنسانية لإخضاع منطق تكوين الدول إلى "الخير العام"... مثل الحديث على الدفاعات النووية المبنية على سيناريوهات التدمير الأكيد والمتبادل، المستعدة للتضحية بأعداد لا تحصى من البشر في سبيل سيادة الدول وتفوق القوى العظمى، وكذلك مساءلة الادعاءات اللاإنسانية للأسواق الرأسمالية بعملها وفق آليات لا أخلاقية، وكونها مسئولة عن الضرر الذي تلحقه بالإنسانية...

وعلاوة على ذلك: فإن الأديان المتعدية الجنسية تذكر جميع الأفراد والمجتمعات بأنه لا يمكن تعريف "الخير العام" إلا بالمعنى العالمي والكوني والإنساني للكلمة، وأن النطاق العام للمجتمعات المدنية الحديثة لا يمكن تحديده بحدود قومية أو وطنية..

(١) الأديان العامة في العالم الحديث، خوزيه كازانوفا، ترجمة / قسم اللغات الحية والترجمة، جامعة البلمند صـ٣٣٦.

٣) إصرار الأديان التقليدية العنيد على الحفاظ على مبدأ " الخير العام " ضد النظريات الليبرالية الحديثة(١).

فالمقصود العام من هذه الأشكال الثلاثة – سالفة الذكر – لتعميم الدين في المجتمعات المتقدمة، هو الدفاع عن البشرية ضد سطوة الدولة، والتي ترى في معظم الأحيان أن تحقيق أهدافها هو المعيار الأساسي للأخلاقية، بغض النظر عن الكوارث الكبرى التي تلحق البشرية من جراء تحقيق تلك الأهداف، وأيضاً الدفاع عن البشرية ضد الأسواق الرأسمالية الكبرى، والتي لا تبالي إلا بمصالحها المادية بغض النظر عن أي شيء، والتي قد تكون مؤيدة بنظريات توصف بأنها ليبرالية!

يقول كازانوفا في خاتمة كتابه "الأديان العامة في العالم الحديث": بروز التقاليد الدينية أو إعادة تأكيدها قد يعتبر دليلاً على فشل التنوير في الوفاء بوعوده الخاصة... لقد خسرت الحداثة الغربية بعضاً من غطرستها، وراحت تشكك في موقفها المتعجرف من الآخر... فعلى نظريات الحداثة والعلمنة أن تكون مفتوحة على إمكانية اضطلاع أديان أخرى بدور ما، كذلك في مأسسة أنماط علمنتها الخاصة...(٢).

يقول أحد الباحثين: المفكر "خوزيه كازانوفا" وصف "إحياء الحياة الدينية" بأنه تعميم للدين وعدم خصخصته، فهو يعتبر التقاليد والطقوس الدينية المتعارفة في شتّى أرجاء العالم لا تسمح لأحد بأن يهمّشها ويضيّق نطاقها في إطارٍ محدود، ومن هذا المنطلق أكد أنها لم تكن تتصاع لتعاليم العلمانية التي حاول منظروها الحد من نفوذ الدين في المجتمعات البشرية(٣).

---

(١) الأديان العامة في العالم الحديث، خوزيه كازانوفا، ترجمة / قسم اللغات الحية والترجمة، جامعة البلمند صـ٣٣٧، ٣٣٨ باختصار وتصرف.

(٢) السابق صـ٣٤٣.

(٣) ما بعد العلمانية في فكر يورغن هابرماس، آرمان زارعي، ترجمة / أسعد الكعبي، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ١٧٧.

بيتر بيرغر (*)

يعتبر "بيتر بيرغر" من أهم وأشهر علماء الاجتماع الأمريكيين المعاصرين، وأيضاً يعتبر من أكثر العلماء المعاصرين اهتماماً وإيماناً وتنظيرياً لمرحلة (ما بعد العلمانية)، ويُعد بحثه المعنون بـ "زوال العلمنة عن العالم" من أهم ما كُتب عن تلك المرحلة، والذي دَوَّن فيه خلاصة أفكاره عن طفرة التدين الجديدة في العالم، فضلاً عما سماه "زوال العلمنة".

وقد لاحظت من خلال قراءتي لمنظري (ما بعد العلمانية) أن بيتر بيرغر يتميز عن غيره بوضوح عباراته وصراحتها، وكونها مباشرة في آن واحد، فلا يكاد المرء يبذل جهداً متواضعاً حتى يتعرف على منهجه ورأيه بكل بساطة، تلك ميزة جديرة بالذكر افتقدتها في معظم من قرأت لهم.

فنجد أن "بيرغر" يدلي برأيه حول علمنة العالم، ويعترف بالخطأ الذي وقع فيه علماء الاجتماع والتاريخ، ويعتبر نفسه أيضاً من هؤلاء العلماء الذين وقعوا في هذا الخطاب فيقول:

((**النقطة التي أريد أن أؤكد عليها هي:** أن فرضية "أننا نعيش في عالم مُعَلْمَن" هي فرضية خاطئة، فالعالم اليوم – مع وجود استثناءات قليلة – لا يزال يتقد بالعاطفة الدينية، وفي بعض الأماكن لربما زاد اتقاد هذه العاطفة، هذا يعني أن جميع ما كتبه علماء الاجتماع والتاريخ حول ما سمي بـ "نظرية العلمنة" هو خاطئ في جوهره، لقد ساهمت أنا شخصياً في الكتابة في ذلك الاتجاه.... إذ كان معظم علماء الاجتماع يؤمنون بالفكرة نفسها، وكان لدينا أسباب وجيهة حتى نؤمن بها... فمن محاسن كون المرء عالم اجتماع، أنه يمكنه إذا شاء ـ وبخلاف الفيلسوف وعالم الدين ـ أن يظل يستمتع حين يتم إثبات خطأ أفكاره بقدر ما يستمتع إذا ثبتت صحتها!))[1].

(*) عالم اجتماع أمريكي معاصر، من أصل نمساوي، توفي سنة ٢٠١٧م.

(١) زوال العلمنة عن العالم، بيتر بيرغر، ترجمة / رامي طوقان، فصلية الاستغراب، عدد ٢، صـ٢٥٢.

ويحكى "رودني ستارك" في نهاية بحثه "فلترقدي بسلام أيتها العلمانية" عن "بيتر بيرغر" قوله: وأخيراً يقول "بيتر بيرغر": أعتقد أن ما كتبته أنا وغيري من علماء الاجتماع الديني في ستينيات القرن العشرين كان خطأ، فقد كانت حجتنا الأساسية أن العلمنة والحداثة يأتيان يداً بيد: مع المزيد من التحديث يأتي المزيد من العلمنة، لم تكن هذه نظرية مجنونة فقد كانت هناك بعض الأدلة التي تشير إلى صحتها، لكني أعتقد أنها كانت في أساسها خاطئة، إذ أن أغلب العالم اليوم هو بكل تأكيد ليس علمانياً، بل هو متدين للغاية(١).

وهناك نصوص أخرى لبيتر بيرغر لم أذكرها، كونها تسير في هذا السياق وهذا المعنى تماماً، ويبدو جلياً أن "بيتر بيرغر" يؤكد دائماً على خطأ نظريات علماء الاجتماع حول (العلمنة) وأن القول بعلمنة العالم بات عارياً عن الحقيقة تماماً.

ثم هو يبرهن على خطأ تلك النظريات، كونها اعتمدت على قاعدة "مع المزيد من التحديث يأتي المزيد من العلمنة" أي أنه كلما كان العالم حداثياً أكثر، كلما دل ذلك على أنه مُعَلْمن أكثر! وتلك قاعدة أتفق مع بيرغر على عدم صدقها، إذ أن العلاقة بين العلمنة والحداثة تبدو في أغلبها زمانية، وليست سببية.

ثم نجد "بيتر بيرغر" في موضع آخر يبرهن على صدق كلامه بخطأ من يقول (أن الحداثة تؤدي إلى تراجع الدين أو انهياره)، فيقول:

فيمكننا تتبع الجذور الأصلية لفكرتها الأساسية إلى عصر التنوير الأوروبي، هذه الفكرة هي في غاية البساطة: إن التوجه نحو الحداثة يؤدي بالضرورة إلى تراجع أو حتى انهيار الدين، سواءً في المجتمع أم في عقول الأفراد، وقد كانت هذه الفكرة تحديداً هي ما ثبت خطؤها... لقد خسرت بعض المؤسسات الدينية قوتها وتأثيرها في بعض

(١) فلترقدي بسلام أيتها العلمنة، رودني ستارك، ترجمة / رامي طوقان، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٧١.

المجتمعات، ولكن في المقابل استمرت معتقدات قديمة، وبرزت معتقدات جديدة لتلعب دورها في حياة الأفراد متخذة أشكالًا مؤسساتية في بعض الأحيان، ومؤدية إلى تفجُّرات كبيرة في بعض الأحيان... إن الفرضية القائلة بأن الحداثة تؤدي بالضرورة إلى تراجع دور الدين هي بالمبدأ "خالية من القيم" (١).

ثم يضيف "بيرغر" دليلاً آخر ليعزز فكرته السابقة، فيقول:

من المثير للاهتمام أيضاً "تبين خطأ نظرية العلمنة "من خلال نتائج استراتيجيات التكيف التي اتبعتها المؤسسات الدينية، فلو كنا نعيش في عالم علماني حقاً لكنا قادرين على أن نتوقع من المؤسسات الدينية" أن تحافظ على بقائها بالتكيف مع العلمانية"، ولكن ما حصل أن المجتمعات الدينية استمرت في الوجود، وازدهرت إلى درجة كونها غير مضطرة للتكيف مع العالم العلماني، نقول ببساطة: لقد فشلت على الإجمال التجارب مع الدين المُعَلْمَن، بينما نجحت حركات دينية مشبعة بعقائد وممارسات ميتافيزيقية...!(٢).

ويجدر بنا أن نبين أسباب ظهور التدين العالمي من وجهة نظر بيرغر، حيث أرجع ما سماه "أصول الصحوة العالمية الدينية" إلى سببين:

الأولى: أن الحداثة تنزع إلى زعزعة اليقينيات التي سلم بها الناس، وعاشوا على أساسها معظم تاريخهم، وهذا وضع غير مريح، غير محتمل أصلاً بالنسبة لكثيرين، وفي المقابل نجد الحركات الدينية تقدم اليقين للناس، مع كونها تمتلك جاذبية كبيرة بالنسبة لهم.

الثاني: أن وجهة النظر العلمانية المحضة تقع بالدرجة الأولى ضمن ثقافة نخبوية، وهذه النخبة مكروهة من قبل كثير من الناس الذين لا يشكلون جزءاً منها، ولكنهم

(١) زوال العلمنة عن العالم، بيتر بيرغر، ترجمة / رامي طوقان، فصلية الاستغراب، عدد ٢، صـ٢٥٣.

(٢) السابق صـ٢٥٤.

يشعرون بأثرها حين يجدون أولادهم يتعرضون لنظم تعليمية تهمل ـ وربما تهاجم ـ معتقداتهم وقيمهم، ولذلك يمكن للحركات الدينية أن تجتذب الناس الذين ينبع مقتهم للعلمانية من أسباب غير دينية(١).

وحقاً ما قاله "بيرغر" فالناس دائماً "بفطرتهم" – وكما ذكرت سابقاً ـ ينزعون إلى الإيمان، تلك فطرة خلقهم الله (ﷻ) عليها، فنجد دائماً أن النفس تنفر دائماً من أولئك الذين يشككون في تلك الأمور، بل وتجد – في المقابل – جاذبية خاصة تجاه من يذكرهم بها، وقد لاحظت كثيراً أن عامة الناس ينفرون دائماً من أطروحات العلمانيين، حتى وإن كانوا غير متفهمين لتلك المذاهب الفكرية أو غيرها، فكل ما يخالف نظرة الإيمان يُقابل بنفور عام عند غالبية الناس.

ثمة شيء آخر مهم في فلسفة "بيتر بيرغر" عن (زوال العلمنة عن العالم) أو (ما بعد العلمانية) وهو ما ذكره تحت عنوان "استثناءات لفرضية زوال العلمنة".

حيث يبين "بيرغر" أن هناك استثناءات فقط لتلك الفرضية، فيقول: العالم اليوم متدين بشكل هائل، وهو أبعد ما يكون عن العالم المُعَلْمَن الذي تكهن الكثير من محللي الحداثة بحصوله، لكن يوجد استثناءان لهذه الفرضية:

الأول: غرب أوروبا، فإذا كانت العلمنة قد تزعزعت في أماكن أخرى في العالم، فهي لا تزال راسخة في أوروبا الغربية.

الثاني: وجود شبكة ثقافة لأناس تلقوا تعليماً غربياً في مجال الإنسانيات وعلوم الاجتماع، وهي شبكة علمانية بالفعل، وتحمل معتقدات وقيم "تقدمية وتنويرية"، وعلى الرغم من قلة عددهم، إلا أن تأثيرهم يبدو كبيراً جداً نظراً لسيطرتهم على المؤسسات الرسمية والإعلام والنظم القانونية(٢).

---

(١) زوال العلمنة عن العالم، بيتر بيرغر، ترجمة / رامي طوقان، فصلية الاستغراب، عدد ٢، صـ٢٦١.

(٢) السابق صـ٢٦١.

وعلى كل حال فهذان الاستثناءان لا يقدحان على الإطلاق في عمومية النظرية التي قدمها "بيتر بيرغر" عن مرحلة التدين العالمية، أو ما سماه "زوال العلمنة عن العالم".

وأخيراً أذكر ما قاله "بيرغر": (العالم المعاصر يطغى عليه جنون ديني، وهذه الخصلة لم تنفك يوماً عن المجتمعات البشرية، كما أن الدين قد انتشر في بعض المناطق التي لم يكن له وجود فيها سابقاً)[١].

وقوله أيضاً في نهاية بحثه "زوال العلمنة عن العالم": (يمكننا قول شيء واحد مع كثير من الثقة: إن الذين يهملون الدين أثناء تحليلهم للقضايا المعاصرة، إنما يعرضون تحليلهم إلى خطر عظيم)[٢].

رودني ستارك

يعد العالم الأمريكي "رودني ستارك" المتخصص في "علم الاجتماع الديني"، من أبرز منظري "ما بعد العلمانية"، حيث تناول هذا الموضوع من وجهة مختلفة عن غيره من منظري وفلاسفة تلك المرحلة.

حيث بنى رؤيته على قاعدة ثابتة عنده، استدل عليها بالكثير من الأدلة التاريخية ونتائج الأبحاث المختصة بهذا الشأن، وتتمثل تلك القاعدة في "أن أوربا لم تكن في يوم من الأيام – وخاصة خلال القرون الوسطى – متدينة بالشكل الذي يُصَوِّغ لنا أن نتوهم أن العلمنة قد قضت على هذا التدين"، بل على العكس فقد كانت أوربا ضعيفة جداً من ناحية تدينها في تلك الفترات السابقة لعصر الحداثة والعلمنة.

واستطرد "ستارك" في ذكر الأدلة من الوقائع التاريخية ونتائج الأبحاث والإحصاءات المختصة بقياسات التدين لدى الأوربيين.

---

(١) ما بعد العلمانية في فكر يورغن هابرماس، آرمان زارعي، ترجمة / أسعد الكعبي، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ١٧٦.

(٢) السابق صـ٢٦٧.

ثم نجده بعد ذلك يقرر أن ثمة "أسطورتين" انتشرتا في الأوساط العلمية والدينية مع خطئهما الأكيد ـ على الأقل من وجهة نظر ستارك نفسه ـ ويعدهما عن الحقيقة، الأولى "أسطورة الانحسار الديني"، والثانية "أسطورة تقوى الماضي"!

تلك الأسطورتين تحملان نفس المعنى السابق ذكره: أن الأوربيين لم يكونوا في الماضي متدينين أو متقين ومؤمنين بالشكل الكافي للقول بانحسار هذا التدين أو ضعف ونقص هذه التقوى أو هذا الإيمان.

١) أسطورة الانحسار الديني.

يقول "رودني ستارك": يعتقد معظم الباحثين بأننا لو رسمنا رسماً بيانياً يمثل معدلات الاعتقادات الدينية لدى الأفراد، ومدى مشاركتهم في طقوسها، لوجدناها تتناسب عكسياً مع اتجاهات التحديث... ولإثبات هذه الفرضية يوجهنا الباحثون المذكورون لنلاحظ الهبوط الحاد في عدد الحضور في الكنائس في معظم أوروبا، ولتستنتج أيضاً تآكل الإيمان الشخصي بناءً على هذا... لكن هذه الفرضيات خاطئة من جميع أوجهها(١).

ثم يسوق ستارك الأدلة على ذلك، منها ما قاله "ديفيد مارتن" أنه لا يوجد دليل على التحول العام من المرحلة الدينية إلى العلمانية! كما أن التدين الأمريكي كان ولا زال في ازدياد مستمر، ويؤيد ذلك تزايد نسب الانتماء للكنائس، ثم إن البيانات الحالية لا تظهر وصول "عصر جديد من الإلحاد"، بل إن مستويات التدين الشخصي لا تزال مرتفعة... وهكذا فالسؤال المهم ليس: لماذا لم يعد الناس في أوربا يؤمنون؟ وإنما هو: لماذا يظل هؤلاء الناس يؤمنون من غير أن يروا أي ضرورة للمشاركة ولو بأدنى درجة في مؤسساتهم الدينية؟(٢).

---

(١) فلترقدي بسلام أيتها العلمنة، رودني ستارك، ترجمة / رامي طوقان، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٤٩.

(٢) السابق صـ٤٩، ٥٠ بتصرف.

ولعل الإجابة على هذا السؤال: أن الأوربيين – أو الغرب عموماً – يوجد لديهم "وازع الإيمان الفطري" الحقيقي الذي فطرنا الله تعالى عليه، ولكن "النصرانية" لا تستطيع الوفاء بمتطلبات هذا الوازع، ويؤيد ذلك: بقاء الإيمان والتدين الشخصي عند الغالبية العظمى من الغربيين، بالتزامن مع هذا النفور العام من حضور الكنائس وإقامة الطقوس الدينية!!

ولربما تعتبر مقولة "أندرو عزلي ١٩٩٥" أقرب المقولات إلى ما ذكرت، حيث قال:

((لا يمكن لزوال الديانة المسيحية من أوروبا أن يحدث... لأن تحول أوروبا إلى الديانة المسيحية لم يحدث أصلاً، أوروبا المسيحية لم توجد قط!))[١].

٢) أسطورة تقوى الماضي.

يبين "ستارك" أن ثمة أسطورة أخرى تبين خطؤها أيضاً، تتمثل في الاعتقاد أن فترة ما قبل الحداثة والعلمنة الغربية، كانت فترة يطلق عليها "عصر الإيمان"، وأن ذلك من الأخطاء الجسيمة الشائعة، ويبين أن معظم المؤرخين البارزين ـ لمرحلة القرون الوسطى ـ والمهتمين بدراسة التدين خاصة، قد اتفقوا على أنه لم يكن لدينا "عصر إيمان" قط في تلك المرحلة!

وأن طبقة الأرستقراطية نادراً ما يحضرون الكنائس، وطبقة الفقراء والعامة أيضاً! وأن المشاركة كانت قليلة جداً، حتى في المدن، وأن ثمة حالة من الجهل الديني كانت منتشرة بين الأوربيين، والأعجب من ذلك: أن الجهل الديني قد تفشى أيضاً في طبقة الرهبان والقساوسة!

(١) فلترقدي بسلام أيتها العلمنة، رودني ستارك، ترجمة / رامي طوقان، فصلية الاستغراب، عدد ٨ صـ٥٨٠.

فإذا كان رجال الدين على هذا المقدار الكبير من الجهل، فلا تتعجب إذا كان عموم الناس لا يكادون يفقهون شيئاً حتى عن أساسيات الدين المسيحي![1].

ومن الجدير بالذكر أن ثمة تقديماً وتأخيراً قد حدث في عرض "ستارك" لهذا البحث المهم، وأن الأسطورة الأولى تعتبر نتيجة مباشرة مترتبة على الاعتقاد بالأسطورة الثانية، ولكني آثرت أن أصوغ العبارات طبقاً لترتيبها في مبحثها الأصلي احتراماً لصاحبها.

ثم يعقب "ستارك" بعد ذلك بقوله: تشير الأدلة بوضوح إلى أن المزاعم حول انحسار كبير في المشاركة الدينية في أوروبا، مبنية على تصورات مبالغ فيها بشدة حول التدين في الماضي، قد تكون المشاركة اليوم متدنية في الكثير من الدول، ولكن ليس هذا بسبب التحديث، ولذلك فإن الطرح العلماني غير ذي أهمية في هذا السياق، لكن ماذا عن الأوقات الأكثر حداثة، فلربما كان منظرو العلمنة متسرعين في توقعاتهم... ولكن المسيحية التي شاعت في أوروبا لم يتحول إليها معظم أبناء القارة إلا بشكل إسمي في أفضل الظروف![2].

*** أدلة "رودني ستارك" على انحسار العلمنة وضعفها، وظهور التدين وقوته:**

يمكن لنا تلخيص تلك الأدلة في الآتي:

١) استدل "ستارك" بدراسة "مايكل وينتر" و "كريستوفر شورت" بقولهما: الأمر الواضح هو أن معظم عمليات المسح حول المعتقدات الدينية في شمال أوروبا تظهر استمرار معدلات عادية من الإيمان بوجود الله وبعض أركان العقيدة المسيحية من ناحية، ومستويات متدنية من الحضور إلى الكنائس من ناحية أخرى... ثم تبين مستوى من العلمنة المفاجئ في تدنيه النسبي.

---

(١) فلترقدي بسلام أيتها العلمنة، رودني ستارك، ترجمة / رامي طوقان، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٥٠ حتى صـ٥٧.

(٢) السابق صـ٥٧.

٢) "**آيسلندا**": وهي تعد أول دولة على ظهر الأرض وصلت إلى علمانية كاملة، لكن العمل الميداني أظهر أنه ثمة مستويات عالية من "التدين في المنزل" في آيسلندا اليوم! وأن ٨١% من السكان في آيسلندا يؤمنون بثقة في الحياة بعد الموت، وأن ٨٢ % يصلون خارج إطار الطقوس الدينية، وأن نسبة الملحدين لا تتخطى ٤ %!، فإذا كانت تلك النسب خاصة بآيسلندا التي تعد الأكثر علمانية، فما هو الحال في الدول الأخرى.

٣) **الاتحاد السوفيتي:** وكما عبر "أندرو غريلي" ١٩٩٤، لم يسبق في تاريخ الإنسانية أن بذل أحداً مجهوداً منظماً لمحو دين، كما كانت الشيوعية الإلحادية تفعل في دول الاتحاد السوفيتي! ولكن النتائج غير متوقعة، فلا يزال عدد الملحدين قليلاً، فلا يزيد عن نسبة الملحدين في أوروبا الغربية، ناهيك عن الولايات المتحدة، ولا يزال معظم الناس يصلون في هذه البلاد السوفيتية!، ففي روسيا (الأكثر إلحاداً) أجاب ٥٣% من الأشخاص الذين شملهم مسح سنة ١٩٩١ بأنهم ليسوا متدينين، ولكن المدهش حقاً أن هذه النسبة تراجعت بمعدل ٣٧ % فقط خلال خمس سنوات!.... بجميع المعايير يمكننا القول بيقين أن صحوات دينية كبرى تحصل الآن خلال الأيام الأولى من مرحلة ما بعد الشيوعية في الكتلة السوفيتية السابقة، وهذا ما فاجأ معظم علماء الاجتماع.

٤) يبدو أن ثمة توافقاً عميقاً بين الدين الإسلامي والتحديث، فالعديد من الدراسات حول العالم يثبت ذلك... فقد ثبت أن الالتزام الديني الإسلامي يتلازم إيجابياً مع المستوى الأعلى من التعليم... ولا يحتاج المراقب صاحب أدنى معرفة بخلفية الدول الإسلامية إلى بيانات كهذه ليرى الحيوية المتفجرة التي يتمتع بها الإسلام في زمننا المعاصر، وكي يدرك تناسب هذه الحيوية المباشرة مع التحديث والحداثة في الدول الإسلامية...[١].

(١) راجع: رودني ستارك، المرجع السابق من صـ٦٣ حتى صـ٦٨.

فبغض النظر عن تعليق ستارك على حيوية الإسلام ـ وهو كلام رائع جداً بلا أدنى شك ـ وهو على حد قوله لا يحتاج إلى دليل.

إلا أن الأدلة الثلاثة الأولى قد تلاحظ أنها أتت متسقة تماماً مع رؤيته التي ذكرتها سابقاً، والمتمثلة في أن الغربيين على العموم لا ينقصهم "الإيمان أو التدين"، يقدر ما ينقصهم "دين "يرسخ هذا الإيمان الفطري، ويتوافق مع تلك العقلية الغربية المتحررة من قيود التبعات لأي دين، حتى ولو كانت "النصرانية"!.

فذلك الإيمان وذاك العقل الناضج ما زالا يتشككان في تلك العقائد من حولهما! باحثين (عن كثب) عن عقيدة تطمئن القلب "تتوافق مع وازع الإيمان، وتقنع العقل".

ولعل هذا – كما ذكرت من قبل – ما يفسر هذا التواجد الظاهر للتدين الشخصي والمنزلي، واختفائه وتضاؤله في دور العبادة والطقوس الدينية.

وأخيراً وفي نهاية بحثه "فلترقدي بسلام أيها العلمنة" يذكر "رودني ستارك" أقوال ثلاثة علماء:"ماري دوغلاس" و "ألكسندر موراي" و "بيتر بيرغر"، ليستدل على نظريته التي طال استدلاله عليها، وقد ذكرت من قبل آراء "بيتر بيرغر" عن (ما بعد العلمانية) وما قول "دوغلاس وموراي" عن ذلك ببعيد.

وبعد ما قدم "رودني ستارك" الكثير جداً من الأدلة ونتائج البحوث والإحصاءات، وآراء العلماء والمختصين بهذا الشأن، يقول كلمة أخيرة يختم بها بحثه، ويلخص بها وجهة نظره:

بعد ثلاثة قرون تقريباً من النبوءات الخاطئة بشكل كامل وإساءة تمثيل الماضي والحاضر، أعتقد أن الأوان قد حان كي نحمل عقيدة "العلمنة" إلى مقبرة الأفكار الخاطئة، ونهمس هناك: فلترقدي بسلام[1].

(١) السابق صـ٧١.

كريستينا شتوكل

أعدت الأستاذة كريستينا شتوكل مقالاً بعنوان "محاولة تعريف بعد العلماني" حاولت فيه أن تطل إطلالة سريعة على (ما بعد العلمانية) من واقع تخصصها كباحثة في "علم اجتماع الدين"، ومن أبرز ما قالت فيه:

شاع خلال العشرين سنة الماضية في العلوم الاجتماعية والسياسية حديث حول "عودة الدين"، مما يعني أن الدين يعلن عن دور وصوت في الفضاء العام الذي كان يفهمه الاتجاه السائد للنظرية السياسية والاجتماعية بأنه فضاء خالٍ من الدين...[١].

وفي محاولة "شتوكل" لتقريب مفهوم "ما بعد العلمنة"، ووضع صيغة ملائمة للوضع الحالي، تقول "شتوكل": تعريف "بعد العلماني" الذي أريد اقتراحه هنا، يلغي صور التتالي (قبل – بعد، تغيير–النظام)، ويعرّف "بعد العلماني" بوصفه حالة وعي معاصر/ تعايش الرؤى الكونية للدين مع الرؤى العلمانية، إن تعايش الرؤى الكونية الدينية والعلمانية، والتطلعات الدينية والعلمانية حول المجتمع والسياسة، وصِيَغ فهم الديني والعلمانية لحياة الفرد يخلق توترات، فبعد العلماني: حالة من التوتر المستمر[٢].

ويبدو أن "شتوكل" تعترف بلا أدنى شك بتلك المرحلة الجديدة التي تفرض نفسها على المجتمعات الغربية "ما بعد العلمانية" بيد أنها تؤثر أن توصفها بأنها حالة من التعايش ومحاولة الانسجام بين "الديني ـ والعلماني" في حياة الفرد والمجتمع، مما خلق تلك الحالة التي أسمتها "التوتر المستمر".

---

(١) محاولة تعريف بعد العلماني، كريستينا شتوكل، ترجمة / طارق عسيلي، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٣٤٧.

(٢) السابق صـ٣٥٠.

ثم نجد "شتوكل" بعد ذلك تبين لنا العلاقة بين "بعد العلمانية" و "الأديان" فتقول: أعتقد أن الحديث عن "بعد العلماني" منطقي بقدر ما نأخذ في الحسبان موضوع التعددية، ووجود الأديان الأخرى – الإسلام والأرثوذوكسية، واليهودية وغيرها ـ بهذا المعنى، أوروبا اليوم تتغير فعلاً، وبسبب الهجرة هنالك حضور كبير للإسلام، ومنذ سقوط الشيوعية في أوروبا الشرقية، صار أيضاً للمسيحية الأرثوذوكسية دور كبير، والبلدان الأوروبية تتحول إلى التعددية الدينية، في مجتمع "بعد علماني" العلاقة بين الدولة العلمانية والأديان تنحو نحواً تعددياً...(١).

ثم تقول "شتوكل" في نهاية مقالتها: أعتقد أننا وصلنا إلى نقطة حيث لا نريد مزيداً من الروايات حول "عودة الدين" أو "إزالة العلمانية" في "مجتمعات بعد العلمانية". نحن نحتاج إلى دراسات تدريجية للتوترات التي تحدّد عصر "بعد العلماني" الذي نعيش فيه(٢).

روجيه مونجو

أعد الباحث الفرنسي "روجيه مونجو" بحثاً رائعاً عن العلاقة بين اللائيكية الفرنسية والمجتمع ما بعد العلماني، قرر فيه وجود تيار عام جديد "ما بعد العلمانية" أو تيار "التدين" داخل المجتمع الفرنسي، وكيفية التعايش والتوافق بين الاتجاهين.

يقول "روجيه مونجو": إن بادئة "ما بعد" قد بدأ استعمالها أخيراً على نطاق واسعٍ، لتمييز المجتمعات المعاصرة: ما بعد حديثة، ما بعد صناعية، أو ما بعد قومية، وما بعد استعمارية... لكن أيضاً "ما بعد علمانية" الأعم مما ذكرنا...

---

(١) محاولة تعريف بعد العلماني، كريستينا شتوكل، ترجمة / طارق عسيلي، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٣٥٣.

(٢) السابق صـ٣٥٦.

يمكن للأديان – وبشكل أكبر أيضاً – وخاصة السماوية منها، كما يمكن لتقاليدها التأويلية العريقة أن تكشف عن أنها مصادر للمعنى قيمة في عالمٍ هو كعالمنا مصاب بأمراضٍ اجتماعية عميقة خطيرة.... بنحو ما أن يظهر الدين خياراً مقبولاً، مانح للمعنى للكثيرين، وفي المقام الأول لجميع المستضعفين في الأرض...[١].

يبدو أن "مونجو" يعلل ظاهرة "تواجد الدين" من جديد على الساحة الفرنسية المفعمة باللائيكية بكثرة الأمراض الاجتماعية الخطيرة، والتي لا خلاص للمجتمع منها إلا برجوعه إلى تدينه وروحانيته المفقودة نظراً لتطبيقات العلمنة المجحفة خلال القرون الماضية.

ثم نجد "مونجو" في نهاية بحثه يضع حلاً لتلك الثنائية (اللائيكية – الدينية) الواضحة في المجتمع الفرنسي قائلاً:

لكي يكون الحل الليبرالي للتعددية الدينية مقبولاً كحل عادل من قِبل المواطنين أنفسهم، يجب أن يَقبل المواطنون "اللائيكيون والمتدينون" أن يذهبوا ـ كلٌّ من وجهة نظره ـ نحو تأويلٍ للعلاقة بين الإيمان والمعرفة، إنّه المسعى الوحيد الذي بمقدوره أن يوفر لهم فرصة أن يرتبطوا بعضهم ببعض داخل المجال العام...[٢].

تارين مونت ألفرني

قد يدهش المرء عندما يشاهد تلك الحركة الفعالة من باحثي فرنسا، حيث تتعدد تمسكاً وإحياءً، ولقد قصدت أن أعقب بكلام "تارين مونت" الباحث والعالم الفرنسي بعد كلام "روجيه مونجو" مباشرةً، لكونهما فرنسيان يتبنيان نفس الفكرة عن العلاقة بين اللائيكية الفرنسية والعودة إلى التدين، فتلك قضية واحدة تشغل الرأي العام

(١) اللائيكية والمجتمع ما بعد العلماني، روجيه مونجو، ترجمة / جمال عمار، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٢٣٦، ٢٤٤.

(٢) السابق صـ٢٥٢.

الفرنسي الآن، وإن كان حوار "تارين مونت" قد جاء من وجهة نظر "إسلامية ـ فرنسية" مفروضة على المجتمع الفرنسي شئنا أم أبينا!

يقول "تارين مونت": حضور دين جديد "الإسلام" الذي أصبح الدين الثاني في فرنسا، وهو الأمر الذي كان غير متصور في زمن تأسيس الجمهورية، بالإضافة إلى ذلك، الانفجار الحقيقي للحريات العامة في وسط النظام القانوني الدولي عموماً، وفي وسط النظام القانوني الفرنسي بشكل خاص، هذا العنصران سيلعبان "يقينًا" لصالح تكييف اللائيكية مقابل هذه البيئة الجديدة (١).

ثم يقول: إن الديموقراطية تستلزم بجوهرها: الاعتراف بالتنوع، مادام هذا التنوع مسجلاً في الإطار نفسِه، فإن صعوبات التعايش تبقى، عمومًا بسيطة وقابلةً للمعالجة بسهولة كبيرة... نشهد، اليوم صعودًا للتيارات الأصولية الدينية من جميع الأطياف، ما يفرض على الديموقراطيين إزاء ذلك أن يعيدوا التأكيد بوضوحٍ على عدد من المبادئ(٢).

من خلال ما سبق يتبين لنا أن كلاً من "روجيه مونجو" و "تارين مونت" يصران على حتمية التعايش وإرساء مبادئ الديمقراطية والمساواة بين المواطنين اللائيكيين والمتدينين الجدد، وخاصة المسلمين منهم، تلك الحالة التي فرضت نفسها على المجتمع الفرنسي الآن: "ما بعد اللائيكية" أو بالمعنى العالمي العام "ما بعد العلمانية"، لابد من التعامل معها بحرص شديد! فضلاً عن إرسال مبادئ العلمنة الفرنسية العريقة نفسها!!

(١) إعادة النظر في مبدأ اللائيكية، تارين مونت، ترجمة / جمال عمار، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٢٨١.

(٢) السابق صـ٢٩٥.

جوزف راتسنغر

وبعد، فلقد وجدنا صحوة عند رجال الدين المسيحي نحو هذا التطور أو التغير ناحية العلمنة، إذ يعد (البابا ـ بندكتس) المعروف بجوزف راتسنغر، مؤلف كتاب (جدلية العلمنة ـ العقل والدين) بالتشارك مع منظر (ما بعد العلمانية) الكبير "يورغن هابرماس"، من أكثر المؤيدين لتلك المرحلة، والمؤيدين لهابرماس أيضاً على الخصوص.

يقول "**راتسنغر**": أجد نفسي متفقاً مع ما قاله السيد "هابرماس" حول المجتمع "ما بعد العلماني"... ليس هناك شك في أن الشريكين الرئيسيين لهذه العلاقة المتبادلة هما الإيمان المسيحي والعقل الغربي العلماني ... لكن هذا لا يعني بأنه يجب على المرء أن يضع الثقافات الأخرى " ككمية غير نافعة" جانباً، سيكون هذا اعتزاز غربي بالنفس سندفع ثمنه غالياً، وندفع هذا الثمن الآن على أي حال... ومن الأهمية بمكان كذلك توسيع هذه العلاقة الثنائية بين العقل والدين في الغرب إلى علاقات متعددة مع ثقافات أخرى منفتحة على هذه العلاقة الثنائية بين العقل والدين في الغرب...[1].

فبغض النظر عن موافقة راتسنغر لهابرماس في "ما بعد العلمانية"، نجد راتسنغر وبخلفيته الدينية يؤسس لنمو جديد للنصرانية في المجتمعات الغربية، في حين يشير للأديان الأخرى بمصطلح "الثقافات" في إشارة "بعيدة" ـ ومن خلال الاستفادة من نتائج أبحاث المهتمين بما بعد العلمانية ـ إلى الإسلام!، وعلى كلٍ، فمهمتنا الآن هي تأصيل التأسيس الحالي لمرحلة "ما بعد العلمانية" كما سبق.

وسواءً أشار بإشارة بعيدة أو قريبة عن الإسلام، فإن الزحف الإسلامي واقع وملاحظ في المجتمع الغربي.

---

(١) جدلية العلمنة، العقل والدين، يورغن هابرماس، جوزف راتسنغر، ترجمة / حميد لشهب صـ٨٠، ٨٢.

أول ويفر

تحدث المفكر الدانماركي "أول ويفر" في بحث له بعنوان "بصدد النزاع الديني في العالم، العلمنة ليست حلاً" عن المرحلة الجديدة "ما بعد العلمانية" والانتشار الديني الذي يعم أوربا، وخاصة دول الشمال منها، حيث تقع الدانمارك التي يقيم فيها ويحاضر في جامعاتها.

يقول "أول ويفر": يُلحظ في جزء كبير من شمال أوروبا أن الإيمان الديني يزداد انتشاراً، ففي وسائل الإعلام يتحدث المشاهير عن اعتقادهم بشيء أو بغيره ـ بخلاف ما كان منذ عشر سنوات ـ أصبح الدين حاضراً وتم التعامل معه على أنه أمر إيجابي، وعنصر غير مؤذٍ ومُرحّب به، باستثناء حضوره في السياسة، حيث يبقى شعار " فصل الدين عن السياسة " مرفوعاً، إذ احتمال تزايد دور الدين في السياسة قد يُخلِّف أثراً سلبياً، فتأثير الدين في السياسة الأوروبية يزداد، وللسبب ذاته أصبح الخوف من الدين أكثر حدّة... إن فكرة "العلمانية" كمبدأ نهائي تثير إشكالية في أوروبا "راهناً" لأنها فكرة مثالية مستحيلة لا تجد الأكثرية حرجاً في انتهاكها أكثر الأحيان، ومن ثمَّ يواجهون بها جماعات بعينها...(١).

تلك هي رؤية "أول ويفر": الدين يزداد انتشاراً بخلاف ما كان منذ عشر سنوات فقط، والأهم من ذلك أنه في بلاد الشمال الأوربي "الأكثر علمانية" يتم التعامل مع الانتشار الديني أنه أمر "إيجابي" طالما تم فصله عن أمور السياسة، والأكثر أهمية من ذلك، أن "العلمانية" تُنتهك في أوروبا حالياً، بل وتثير إشكالية أيضاً.

ثم نجد "أول ديفر" لا يكتفي بهذه التصريحات، بل ويحذر من اتخاذ خطوات عدائية ضد الظاهرة الجديدة من التدين، ويدعو لتقبلها بشكل أو بآخر في الكيان المجتمعي، فيقول "ويفر":

---

(١) بصدد النزاع الديني في العالم، العلمنة ليست حلاً، أول ويفر، ترجمة /طارق عسيلي، فصلية الاستغراب، عدد ٢، صـ٢١٩.

إن إعلان الغرب للحرب دفاعًا عن مبادئ "العلمانية" يشكّل استفزازًا لا ضرورة له، وخطراً وتعصباً على المستوى الدولي، وهو يضفي شرعية على التمييز الصريح في السياسة الداخلية باسم التسامح، وهذا يؤدي بشكل خاص إلى تسييس عدائي للدين مقابل التأثيرات المحدودة التي كان يمكن أن تحصل لو شكّلت المناظرات الدينية بعداً آخر في الحوار السياسي التعددي....

ستكون الآثار "السلبية" للسماح بتدخل الدين محدودة، ذلك لأن استخدام الدين كشكل من أشكال الحوار له حدوده بسبب طبيعة السياسة، فليس من الحكمة أن تُستخدم حجج لا تكون مقنعة إلا لجزء محدود من الناس، في الوقت نفسه قد توجد إيجابيات كثيرة، منها أن السماح للدين في السياسة سيكون سبباً في إضعاف صورة الغرب المعادي والمحارب للدين(١).

من الواضح أن إشكالية "ظهور التدين في الغرب" في المرحلة الحالية، ترهق الكثير من مفكريهم بتوقعات حول أزمات "لا محالة" ستحدث، وإن كانت قد بدت بوادرها بالفعل في بعض البلدان الأوروبية مثل فرنسا.

تلك المشكلات المتوقعة فرضت على مفكري وفلاسفة الغرب إيجاد حلول مباشرة لها، أو العمل على تجنبها قدر الاستطاعة كما تبين من خلال كلام " أول ويفر " السابق، وغيره ممن سبق ذكرهم خلال مناقشة هذه الظاهرة.

سيزار ميرليني

ربما كان الكاتب الإيطالي "سيزار ميرليني" أكثر صراحة ووضوحاً من غيره في الحديث عن مرحلة "ما بعد العلمانية"، حيث صَدَّر بحثه المعنون (هل دخل العالم مرحلة ما بعد العلمانية) بقوله:

(١) بصدد النزاع الديني في العالم، العلمنة ليست حلاً، أول ويفر، ترجمة /طارق عسيلي، فصلية الاستغراب، عدد ٢، صـ٢٢٨.

تميّز العقدان المنصرمان بعودة الدين أو انبعاثه على المسرح العالمي، فقد صار تأثير مسيحيي الولايات المتحدة في الفضاء السياسي قوياً وملحوظاً وحاسماً أحياناً، وازداد عدد النساء المسلمات اللاتي يرتدين الحجاب للتعبير عن هويتهن في بلدانهن الأم، أو في البلدان التي تستضيفهن، وإسرائيل آخذة في التحول إلى دولة يهودية، وبما أن قراءة هذا النوع من الظواهر يغري باستشراف النتائج المستقبلية، برزت صورة عالَم يتحول إلى "بعد العلمانية"، في عين تحوله إلى "بعد غربي"(١).

يبدو أن الصورة الآن قد باتت واضحة تماماً، ومن خلال أقوال مفكري وفلاسفة الغرب أنفسهم، حتى لا يكون هناك أدنى شك في مرحلة خطيرة كهذه التي نحن بصدد الحديث عنها، والتي تمثل "منعطفاً تاريخياً للغرب" قد يُؤرخ له بعد عدة سنوات ببداية عصر غربي جديد، مختلف تماماً عن عصوره السابقة كلها، وخاصة "عصر العلمنة" الذي راهن الكثير من المفكرين والفلاسفة الغربيين على أنه لن يزول أبداً!!

وقد آثرت من خلال هذا الفصل أن أؤكد على أمرين:

الأول: الاستشهاد على تلك المرحلة "ما بعد العلمانية" من خلال أقوال فلاسفة الغرب ومفكريهم.

الثاني: الاستشهاد بأقوال الكثير من هؤلاء الفلاسفة، حتى لا تكن مجرد وصف آراء واجتهادات فردية أو شخصية، بل على العكس، وكما تبين لنا من خلال العرض السابق لتوصيف المجتمعات الغربية الآن على لسان مجموعة كبيرة من فلاسفتهم ومفكريهم (من جنسيات مختلفة)، أن "تدين الغرب" أصبح ظاهرة لا تخفى على أحد، وأن مرحلة ما تسمى بـ "ما بعد العلمانية" لا شك فيها الآن.

ولعل ما سقناه من أدلة وشواهد على بزوغ فجر مرحلة "ما بعد العلمانية" على ألسنة "شاهديها من أنفسهم" في هذا الفصل، فضلاً عما ذكرته في الفصل السابق

(١) هل دخل العالم مرحلة ما بعد العلمانية، سييزار ميرليني، ترجمة /طارق عسيلي، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٥٩، وانظر كتاب: الله يتجلى في عصر العلم، تأليف / مجموعة من العلماء الأمريكيين، ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد صـ٣٢.

"أسباب ظهور ما بعد العلمانية" يؤكد وبلا شك أن "عصر العلمنة الغربية الطاغية" قد بات متهافتاً وضعيفاً عن ذي قبل، وخاصة في العقل الجمعي الغربي، وبغض النظر عن المؤسسات الرسمية وقوانين ودساتير الدول.

فعقول وقلوب الغربيين الآن أدركت أن "العلمنة" كانت مرحلة لابد من خوضها خلال القرون القليلة الماضية لإنشاء المجتمع الغربي المفعم بالرفاهية، والديمقراطية، والمساواة وحقوق الإنسان، والتقدم المذهل في العلوم والصناعات.

ولكن ثمة مشكلات اجتماعية ونفسية خطيرة حدثت وبفعل "العلمنة"، يمكن لها أن تنقض عرى تلك المجتمعات وتدمرها وتلحق بها هلاكاً عاماً (مثل ما ذكرنا سابقاً من الأمراض النفسية والعصبية والاجتماعية الشائعة، وتوابعها من الكبت، والاكتئاب، والانتحار، والعرى، والزنا، وأولاد السفاح، وقلة الزواج والإنجاب، والتفكك الأسري، والإدمان، وتعاطي المخدرات والكحوليات، والفراغ العقدي والفكري، وضياع القيم، ونسبية الأخلاق، وطغيان فلسفة المادة والمنفعة... الخ).

فلابد ـ وعن قناعة تامة وحرص شديد ـ أن تُعالج هذه المشكلات وبسرعة حتى لا تنهار تلك المجتمعات بأكملها، حيث لا ينفع العلاج، ولا تفيد كثرة البناء!

لقد أدرك الغرب حقاً أن ثمة أمور روحية وقلبية يجب أن تأخذ حقها في سُلَّم الأولويات، وأن رجوعاً إلى "التدين" واهتماماً بالغاً به، يجب أن تكون الصفة الأساسية للمرحلة القادمة.

وسواءً أكان هذا "التدين" قائماً على أفول "العلمنة" وزوالها ـ على رأي البعض ـ أو مشاركاً لها ومتعايشاً معها ـ على رأي البعض الآخر ـ فإن مرحلة جديدة يُطلق عليها "ما بعد العلمانية" قد ولدت بالفعل في الغرب، وهي الآن في طور النمو والتفريغ والانتشار.

والسؤال الآن: أي دين سيكون في المقدمة في الفترة القادمة؟! وهل سيكون هناك تكافؤ للفرص بين الأديان في تلك الساحة؟!

الفصل الثالث
بين الإسلام والنصرانية
في مرحلة "ما بعد العلمانية"

تمهيد

لا شك أن التساؤل الآن أصبح ملحاً، بل وضرورياً، فثمة تغيرات هائلة تحدث في العالم الغربي، تلك الأمم التي ارتضت الديمقراطية مذهباً، حتى أصبحت حرية اختيار الأفراد كالماء والهواء، فتجد الإنسان الغربي مُخيراً في كافة أموره الخاصة، ليس عليه أدنى التزام، لا من الدولة، ولا المجتمع، ولا الأسرة، ولا أي أحد يستطيع أن يلزمه بأي شيء يخصه، فهو حر تماماً في اختياراته؛ يعمل أولا يعمل، يتزوج أولا يتزوج، ينجب أو لا ينجب، يبقى مع أسرته أو يتركهم، يترك دينه أو يبقى عليه، أو يعتنق ديناً آخر، أو يلحد، يلتزم دينياً أو لا يلتزم.

والسؤال الآن:

- إلى أين سيذهب هذا الإنسان المتمتع بتلك الحريات التي لا حدود لها؟
- هل سيبقى على عقيدته النصرانية في الغالب؟ ويبقى على حاله؟
- هل سيفتش في تلك العقيدة عن حلول لهذه الأزمات العقدية والاجتماعية والنفسية التي تكاثرت عليه في الآونة الأخيرة؟
- هل سيبحث عن دين آخر يجد فيه بغيته ومطلبه وقناعته؟
- هل سيتجه نحو الإلحاد ويرضى به مذهباً؟

لقد أدركنا – وبدون شك – من خلال الفصلين السابقين، **أن الغرب الآن يتجه نحو التدين بشكل كبير**، وأنه قد سئم من نواتج العلمنة التي صنعت له ممارسات آلية مادية عصفت بحياته وروحه كإنسان يستحق أن يكون إنساناً.

يقول "إدغار موران": كلما زاد تحكمنا في القوى المادية في العالم زدنا انحطاطا بالمجال الحيوي، وباتت أسطورة السعادة هي الأخرى في أزمة... فإذا المدينة المتألقة تصير مدينة مجسِّية بحياتها المعقلنة، وأشكال التلوث المهمينة عليها وكروبها، وقد خيل إلينا أن في مقدورنا أن نبني حضارة تنعم بالأمن، لكننا صرنا ندرك

في الوقت الحاضر أن هذه الحضارة تخلق مخاطر جديدة بدلاً من أن تزيل الخطر الواحد.

ويتعين علينا كذلك أن نتحدث عن أزمة الروح وأزمة الفكر، فهي أزمة تطلق نداء على الشرق الداخلي، وستمضي للبحث في الشرق الخارجي عن علاجات لها... وكأن الحضارة المادية قد خلقت فراغاً روحياً، وطلاقاً بين الجسد والفكر.

إن الأمم المتحدة باتت اليوم عاجزة عن الحل لهذه المشكلات، وصارت هي الأخرى إلى أزمة... فهل في الإمكان أن نأتي باسم لما لم يظهر بعد؟ ولما يتبدى في صورة متقلبة ومشوشة؟ إن تضادات الحداثة قد بلغت أقصى المبالغ، فقد بات الأمر وكأن ثمة احتضاراً، بالمعنى الأصلي لهذه الكلمة، أعني صراعاً بين قوى الحياة وقوى الموت(١).

إن أزمة الغرب باتت لا تخفى على أحد، تلك الأزمة التي أرهقت عقول فلاسفة ومفكري الغرب أنفسهم، وأصبح لسان حالهم: إن ثمة مشكلات خطيرة تحيق بنا، وتكاد أن تفتك بمجتمعاتنا، وأن العلمنة ليست حلاً، بل هي السبب الرئيسي في تلك الأزمة، وأنه لابد من حلول للخروج من تلك الإشكالية الكبرى.

أصبح الغرب الآن يتحدث من جديد – طوعاً أو كرهاً – عن أهمية التدين، والعودة إلى الإنسانية بقلبها وروحها وحياتها، تلك الإنسانية التي قتلت غدراً وظلماً، بأيدي العلمنة والحداثة والمادية.

ولكن: إلى أي فكر يتجه الغرب؟ أم إلى أي دين؟

إن جميع المؤشرات – وكما أصلنا سابقاً – تبين أن الغرب يتجه وبقوة نحو الدين، وأن المرحلة القادمة مرتبطة بتلك السلع التي تعرضها الأديان المختلفة، والتي ستكون قادرة على تجاوز تلك الأزمة، وحل مشكلاتها من جذورها.

---

(١) هل نسير إلى الهاوية، إدغار موران، ترجمة/ عبد الرحيم حزل صـ٢٨، ٢٩، ٣٠.

يقول "خوزيه كازانوفا": على الأصولية أن تبين مصداقية ادعاءاتها من خلال الحجة العامة، وهذا يحتم على الأصوليين القيام بخيار صارم، فالذين يقبلون بقواعد الالتزام في النطاق العام ويبدأون الجدال مع جيرانهم سيكون عليهم أن يتخلوا عن أصوليتهم ـ على الأقل من الناحية الإجرائية ـ فزعمهم أن سلعهم المعيارية هي وحدها السلع الأصيلة والأثمن من سلع منافسيهم، لابد من أن يخضع للتقييم العام، ولامتحانات المقبولية النموذجية، وللتكييف الناتج عن المساومات السائدة في سوق الأفكار المتعدد والمفتوح، ومما لا شك فيه أن بعض المتسوقين سيتوقفون في دكاكين الأصوليين، وقد يعجبون ببعض تحفهم القديمة، بل ويبتاعونها.

والمنافسون العلمانيون سيأتون لبيع بضائعهم في حرمة غرف جلوسهم وداخل منازلهم، فالأصولية التي لا تستطيع أن تصبح كنيسة معترفاً بها، إما أن تظل فرقة دينية مستقلة، أو أن تصبح مجرد مذهب آخر بين المذاهب الدينية(١).

ها هو "كازانوفا" والذي يُعد من أكبر منظري "ما بعد العلمانية"، يُعلنها صراحةً: أن المنافسة قائمة، وأن فرص الفوز مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بقيمة المعروض، وبقدرته على حل المشكلات التي ألجأتنا ـ أساساً ـ للبحث عن حل عاجل لها!

ونجد أن "كازانوفا" لم يستنكف أن يعرض هذا الأمر الجلل في تلك الصورة المألوفة عادة لدى كل إنسان، من البيع والشراء والتردد على الدكاكين والمنازل لمعاينة المعروض وتقييمه على كل حال.

وإن كان "كازانوفا" قد جاء كلامه في السياق العام المجرد عن التخصيص، فإن "بيتر بيرغر" قد تجاوز تلك المرحلة، وراح يتحدث – مستنداً إلى الواقع – عن منافسة حقيقية تحدث الآن في العالم ـ العائد إلى التدين ـ بين الإسلام والنصرانية.

---

(١) الأديان العامة في العالم الحديث، خوزيه كازانوفا، ترجمة / قسم اللغات الحية والترجمة، جامعة البلمند صـ٢٤١، ٢٤٢.

يقول "بيتر بيرغر" تحت عنوان "الفروقات بين الحركات المزدهرة":

تحليل الأثر الاجتماعي والسياسي للصحوات الدينية المختلفة يجب أن يأخذ في اعتباره الفروقات في ما بينها، تظهر هذه الحدود بوضوح إذا نظرنا إلى النهضتين الدينيتين الأكثر ديناميكية في العالم اليوم: الصحوة الإسلامية والصحوة الإنجيليّة.... الصحوة الإسلامية، وبسبب تعقيداتها السياسية الواضحة والمباشرة معروفة بشكل أكبر... إنها تتألف من عودة التزامات ذات طبيعة دينية مؤكدة ومثيرة للإعجاب، وتصنع مدى جغرافياً هائلاً يمتد إلى كل بلد إسلامي... في حين لا يزال عدد المنتمين إليها يزداد يوماً بعد يوم... حيث تجد نفسها في منافسة صريحة مع المسيحية!.

لقد أصبحت هذه الصحوة واضحة جلية في المجتمعات الإسلامية المزدهرة في أوروبا حتى في أميركا الشمالية، حيث تجلب معها حركة عودة إلى أساليب حياة متميزة في إسلاميتها... وهي قوية للغاية في مدن تشهد مقداراً كبيراً من التحديث... ولا تقل الصحوة الإنجيلية عن سابقتها في اتساع مجالها الجغرافي، حيث نجحت في الظفر بعدد كبير من المعتنقين الجدد في الصين وكوريا الجنوبية والفلبين...[1].

والحق أن كلام "بيتر برغر" وإن كان صحيحاً في المجمل، إلا أن حركة انتشار الإسلام في مجتمعات الغرب أكبر مما ذكره، وأن ثمة تنافساً كبيراً بين الإسلام بحقيقته وقوته الذاتية والضعف الشديد الذي يعتري الدعوة إليه، وبين النصرانية التي فقدت معظم قواها وقناعتها في المجتمعات الغربية نفسها.

وربما كانت الدعوة إلى "التدين" تحمل بين طياتها السعي نحو بناء مجتمعات جديدة مؤسسة على قواعد عقدية ودينية، يرى الجميع أن الالتفاف حولها والالتزام بها قد يكون أفضل من السعي وراء علمنة بغيضة أرهقت مجتمعات عديدة ردحاً من الزمن.

---

(١) زوال العلمنة عن العالم، بيتر بيرغر، ترجمة / رامي طوفان، فصلية الاستغراب، عدد ٢، صـ٢٥٧.

ويؤيد ذلك العلامة ابن خلدون، حيث يبين أن الدول الكبرى دائماً ما تؤسس دينياً، فيقول في المقدمة: أن الدولة العامة الاستيلاء، العظيمة الملك أصلها الدين، إما من نبوة أو دعوة حق... وأن الدعوة الدينية تزيد الدولة في أصلها قوة على قوة العصبية التي كانت لها من عددها(١).

فلا شك أن الدين الحق قادر على صهر جميع الثغرات الطائفية والقوميات المتعددة والمتناحرة، والخلفيات الثقافية المختلفة، والعادات والتقاليد في بوتقة واحدة، وجعل الكل سواء أمام معتقدهم وشريعتهم وأصلهم الذي ينتمون إليه جميعاً وبدون تفرقة.

وعلى كل حال، فثمة أمور واقعية الآن لابد من الاعتراف بها والانطلاق من خلالها:

- أن العالم يتغير الآن ويتجه نحو التدين بشكل كبير.
- أن أسواقاً من نوع جديد تظهر مؤخراً، تلك التي تعرض فيها بضائع الدين.
- أن الرابح من تلك الأسواق هو من يملك الحقية والمصداقية والقناعات العقلية.
- أن المنافسة الحقيقية والواقعية هي تلك الدائرة رحاها بين الإسلام والنصرانية.

تلك النقطة الأخيرة ـ والمتضمنة لما سبقها ـ هي محور بحثنا في هذا الفصل من البحث.

ويبدو لنا جلياً ـ ومن خلال الصفحات السابقة ـ **أن التنافس الحالي والقادم بين النصرانية (التي تمثل الدين العام والرسمي لدى الغرب) والإسلام القادم بكل قوته وقدرته الرائعة على الإقناع والشيوع.**

ويجدر بنا الآن أن نستشرف تلك الأمور للخروج بنتائج تساهم في معرفة الحقائق ودعم الأطر البحثية في المرحلة القادمة.

---

(١) المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق / حامد الطاهر صـ٢٠٥، وانظر: ابن خلدون، فلسفته الاجتماعية، جوستون بوتول، ترجمة / غنيم عبدون صـ٥٧.

أولاً: النصرانية.

لقد بدأت بالنصرانية لكونها الأقدم تاريخياً، ولكونها الأوسع انتشاراً في الأوساط الغربية عموماً عن غيرها من الأديان السماوية والوضعية، وكذا المذاهب الإلحادية أيضاً، فضلاً عن كونها الديانة الرسمية للأمم الغربية.

ومع كون النصرانية – بالوصف السابق – إلا أنها قد بدت "قديماً وحديثاً" **باهتة وخافتة وغير مقنعة** للآخرين على الإطلاق، فضلاً عن عدم اقتناع الكثير من أتباعها أيضاً!

ولست الآن بصدد التأريخ والتأصيل والتحليل للنصرانية، فتلك أبحاث أخرى ليست من مقصودنا الآن، ولكن ثمة إطلالة سريعة على الوضع الحديث لها تطابقاً وتزامناً مع موضوع بحثنا "ما بعد العلمانية".

ولكن لابد من الإشارة إلى **تحريف** "**النصرانية**" الظاهر والواضح للعيان، لنقر أمراً: أن النصرانية دين مُحرَّف، وأن أياد بشرية آثمة قد عبثت به على مدار قرون متطاولة، ولا زالت تعبث حتى الآن، وأن أمراً كهذا لا يخفى على كثير من العامة، فضلاً عن العلماء والباحثين، ومن النصارى أنفسهم.

ولقد تحدث القرآن الكريم في آيات كثيرة عن التحريف الذي ألحقه أهل الكتاب (يهود ونصارى) بالتوراة والإنجيل، أو ما يطلقون عليه الكتاب المقدس (العهد القديم ـ العهد الجديد).

ومنها قوله تعالى: ﴿ **أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ [سورة البقرة: ٧٥].

وقوله تعالى: ﴿ **فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ** ﴾ [سورة البقرة: ٧٩].

وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة آل عمران: ٧٨].

وقوله تعالى: ﴿ فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْهُمْ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ [سورة المائدة: ١٣]

وقوله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا أُولَئِكَ الَّذِينَ لَمْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْ لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [سورة المائدة: ٤١].

وغير ذلك من الآيات التي تتحدث عن تحريفهم لكلام الله تعالى، وافترائهم على رسله الكرام عليهم جميعاً وعلى نبينا الصلاة والسلام.

ومن أعظم تلك الافتراءات: قولهم بألوهية المسيح (عليه السلام) ، وكونه إبناً لله تعالى وقولهم بالتثليث.

يقول تعالى: ﴿ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا ﴾ [سورة النساء: ١٧١].

ويقول تعالى: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ

وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ * لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى اللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ * مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَاللَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾ [سورة المائدة: الآيات ٧٢: ٧٦].

ويقول تعالى: ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ * اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ * هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ [سورة التوبة: الآيات ٣٠: ٣٣].

تلك العقائد المفتراة على الله ورسله، والتي أرهقت عقول النصارى أنفسهم، وخاصة (فلاسفتهم ومفكريهم) في عصر العلم الحديث، فضلاً عن باقي الافتراءات والأكاذيب والمغالطات العلمية والتاريخية التي يعج بها (الكتاب المقدس) بعهديه القديم والجديد.
ولقد كفانا تعب البحث في هذه الأمور علماؤنا القدامى والمحدثون، ممن تلقت الأمة أقوالهم بالقبول والرضا بعد دراستها وفحصها.

يقول "رحمت الله الهندي" (رحمه الله) في نهاية كتابه: "إظهار الحق حول المسيحية والمسيح": إن هذا الكتاب قد كشف لك حقيقة كتب العهدين ، وأثبت أن أهل الكتاب لا يوجد عندهم سند متصل لأي كتاب من كتب العهدين القديم والجديد، وأن هذه الكتب

فاقدة لصفة الوحي والإلهام، فهي مليئة بالاختلافات والتناقضات والأغلاط والتحريف، كما أبطل هذا الكتاب عقيدتي التثليث وألوهية المسيح(١).

ويقول ابن القيم (رحمه الله): دين أسس بنيانه على عبادة الصلبان والصور المدهونة في السقوف والحيطان، وأن رب العالمين نزل عن كرسي عظمته فالتحم ببطن أنثى وأقام هناك مدة من الزمان بين دم الطمث في ظلمات الأحشاء، ثم خرج صبياً رضيعاً يشب شيئاً فشيئاً ويبكي ويأكل ويشرب ويبول وينام، ويتقلب مع الصبيان، ثم أودع في المكتب بين صبيان اليهود يتعلم ما ينبغي للإنسان، ثم جعل اليهود يطردونه ويشردونه من مكان إلى مكان، ثم قبضوا عليه وأحلوه أصناف الذل والهوان، ثم ساقوه إلى خشبة الصلب... هذا وهو مدبر العالم العلوي والسفلي، ثم مات ودفن في التراب، ثم قام من قبره وصعد إلى عرشه وملكه بعد أن كان ما كان... فما ظنك بفروع هذا أصلها الذي قام عليه البنيان؟!(٢).

وما يهمنا الآن ـ كما ذكرت سابقاً ـ أن نُطل إطلالة سريعة على وضع النصرانية الحديث، لمواكبة المرحلة الحالية التي نتحدث عنها "ما بعد العلمانية".

النصرانية والعلم الحديث، وآراء متبعيها من المفكرين والعامة

تشير الأبحاث التي قام بها الكثير من علماء الغرب وفلاسفتهم، أن ثمة شكوك حول معتقدات النصرانية لا يمكن للعقل أن يستوعبها في عصر مفعم بالعقلانية، فضلاً عن النتائج المذهلة للعلوم التجريبية الحديثة.

---

(١) التلخيص الأمين لما جاء في كتاب إظهار الحق حول المسيحية والمسيح، رحمت الله الهندي، مركز التنوير الإسلامي صـ١٩١.

(٢) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، شمس الدين محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا صـ٢٤. وانظر: الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، أحمد بن عبد الحليم بن تيمية، تحقيق /سيد عمران جـ٢/صـ١٧، صـ٢١.

فبغض النظر عن المغالطات التاريخية والعقدية التقليدية في النصرانية، فإن العصر الذي نعيش فيه لا يتسامح أبداً مع تناقضات ظاهرة وأخطاء علمية تعج بها جميع الأناجيل.

يقول "**رودني ستارك**": شيء علينا أن نلاحظه حول الطرح العلماني، وهو أمر تتضمنه سائر صيغه، هو الزعم بأنه وفي جميع أوجه التحديث، فإن العلم هو الذي سيحمل المضامين الأشد فتكاً بالدين، فيستوي "كومت، ووالاس، وفوبيه، ودوبلآير"، جميعهم في زعمهم بأن العلم سيحررنا "من قيود الخرافات العقائدية".

أو إذا كان لنا أن نقتبس الصياغة الغريبة التي تقدم بها "برايان ويلسون": (لقد خسرت المسيحية تحت تأثير آخر ما أدركته العلوم، والعلوم الاجتماعية عموم مصداقيتها اللاهوتية**)**[1].

وأتفق تماماً مع هذا العرض لبعض فلاسفة الغرب "الذين يحكمون عن بني جلدتهم"، فالنصرانية فقدت معظم قواها وحيويتها وقناعتها بسبب العلم الحديث ونتائجه، ولا زالت تخسر من رصيدها "المتواضع" حتى الآن، وتفقد أتباعها يوماً تلو اليوم، حتى إن الكثير منهم يتبع المسيحية اسماً فقط، أما قلبه وإيمانه فهما في اتجاه مخالف تماماً للظاهر المتعارف عليه من كونهم مسيحيين يعيشون في مجتمع مسيحي**!!**.

وهذا هو السبب الحقيقي والمباشر لظاهرة "عودة الإيمان والتدين للغربيين، مع نفورهم شبه العام من ارتياد كنائسهم وإقامة طقوسهم الدينية"**!!**

تلك هي النقطة الأهم التي يجب النظر إليها ومحاولة فهمها في إطار "ما بعد العلمانية"، ولذلك نجد "رودني ستارك" يقول:

---

(١) فلترقدي بسلام أيتها العلمنة، رودني ستارك، ترجمة/ رامي طوقان، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٤٨.

لرفض مزاعم علمنة أوروبا فإن البيانات الحالية لا تظهر وصول "عصر جديد من الإلحاد"، بل إن مستويات "التدين الشخصي" لا تزال مرتفعة، وتصنيف أي دولة بأنها على درجة عالية من العلمانية، بينما لا يزال معظم سكانها يؤمنون "بالإله"، لهو طرح سخيف مناقض لنفسه، بل وكما قالت "غريس دايفي": إن السؤال المهم فيما يتعلق بالدين في أوروبا ليس: "لماذا لم يعد الناس يؤمنون؟"، وإنما هو: "لماذا يظل هؤلاء الناس يؤمنون من غير أن يروا أي ضرورة للمشاركة وحتى بأدنى درجات الانتظام في مؤسساتهم الدينية؟"(١).

ويقول أيضاً: ما تهتم به تنبؤات العلمنة هو بالدرجة الأولى "التقوى الشخصية الفردية" وخاصة مسألة "الإيمان"، ولهذا تكهن "جيفرسون" أن الجيل التالي له سيجد المعتقدات المسيحية، وخاصة تلك المتعلقة "بألوهية السيد المسيح" أموراً غير قابلة للتصديق، ولذا فلن يحتفظ أبناء ذلك الجيل إلا بالحد الأدنى من الحضور الإلهي، ومفهوم الألوهية كما يمثله المعتقد المسيحي التوحيدي، الأمر نفسه ينطبق على "إنجلز" الذي لم يهتم بشأن الباباوات والمطارنة، ولكنه كان يهتم "الخرافات الدينية" التي تعتنقها الجماهير...(٢).

والجدير بالذكر أيضاً أن "رودني ستارك" مع كونه غربياً مسيحياً، لم يتحرج أبداً من ذكر تلك الآراء لهؤلاء الفلاسفة، وخاصة ـ وكما ذكرت ـ في إطار تنظيره وتأريخه لمرحلة جديدة قد تكون هي الأخطر في التاريخ الغربي الحديث.

والحقيقة أن هؤلاء الفلاسفة ليسوا متفردين بتلك الآراء، بل على العكس، فإن الكثير من فلاسفة الغرب ومفكريهم يعتقدون بمثل ذلك تماماً، بل وأكثر!!

---

(١) فلترقدي بسلام أيتها العلمنة، رودني ستارك، ترجمة/ رامي طوقان، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٥٠.

(٢) السابق صـ٤٦.

يقول "**برتراند رسل**": العلم يتنبأ بما نستطيع العلم به.... أما اللاهوت فتراه يحملنا على إيمان أعمى، بأننا نعلم شيئاً عن جوانب نحن في الواقع جاهلون بها، وهو ببثه هذه العقيدة في نفوسنا، يولد فينا نوعاً من القحة الذميمة إزاء الكون... فليس من الخير أن ننسى المسائل التي تثيرها الفلسفة، ولا من الخير أن نحمل أنفسنا على العقيدة بأن وجدنا حلول تلك المشاكل على نحو لا يأتيه الشك أبداً(١).

فنجد "رسل" وهو من كبار مؤرخي الفلسفة يتحدث عن لاهوت النصرانية بتلك الصيغة الحادة والقاسية بدون تحرج كما فعل خلفه "رودني ستارك" ومن حكى عنهم جميعاً.

إن ما ذكرته ـ سابقاً ـ أن أصول العقيدة النصرانية "من صلب، وتثليث، وتأليه المسيح..." تلك العقائد وغيرها تسببت في صد الكثير من متبعي النصرانية عن دينهم على مدار تاريخ النصرانية، فضلاً عن الحقبة التاريخية الحديثة المفعمة بالعلم والتحرر من كافة القيود.

إن عقول هؤلاء لا تستوعب هذه المفارقات والمهازل العقدية، والتي طالما أرقت مضاجعهم، وأرهقت عقولهم دون ما أدنى تفسير أو توجيه أو تعليل.

ولذلك يقول "وولتر أوسكار لندبرج" عالم الفسيولوجيا والكيمياء الحيوية الأمريكي: ففي جميع المنظمات الدينية المسيحية تُبذل محاولات لجعل الناس يعتقدون منذ طفولتهم في إله على صورة الإنسان، بدلاً من الاعتقاد بأن الإنسان قد خُلق خليفة لله في الأرض، وعندما تنمو العقول بعد ذلك وتتدرب على استخدام الطريقة العلمية، فإن تلك الصورة التي تعلموها منذ الصغر لا يمكن أن تنسجم مع أسلوبهم في التفكير أو مع أي منطق مقبول، وأخيراً وعندما تفشل جميع المحاولات في التوفيق بين تلك الأفكار الدينية القديمة وبين مقتضيات المنطق والتفكير العلمي، نجد هؤلاء المفكرين

(١) تاريخ الفلسفة الحديثة، برتراند رسل، ترجمة د/ زكي نجيب محمود جـ١/صـ٦.

يتخلصون من الصراع بنبذ فكرة "الله" كلية... ولا يحبون العودة إلى التفكير في هذه الموضوعات(١).

وهذا ما أردت التأكيد عليه قبل ذلك، وكما يقولون هو "بيت القصيد"، فتلك الآفة الكبرى ما برحت أن جردت النصرانية من أي محتوى يستطيع أن يُبقي متبعيه على نحو ما من القناعة والإلزام الإيماني.

ولذلك نجد أن **الكثير من فلاسفة الغرب وكبار مفكريهم يفضل الإلحاد على نصرانيته** التي نشأ في رحابها وترعرع بين جنباتها!

فالفيلسوف الألماني "**فردريك نيتشه**"، والذي نشأ نشأة دينية، وكان في صغره يلقب "بالقس الصغير"، وكان أبوه قِساً بروتستانتياً، وكذا جديه لأمه وأبيه، وقد ألف أبيه كتاباً سماه (البقاء الأبدي للمسيحية)(٢).

وعلى الرغم من تلك النشأة الدينية التي لا مثيل لها، نجد "نيتشه" فيلسوف "القوة" الشهير يغادر النصرانية وبغير عودة!، بل ويُحقر من شأنها حتى لُقب بـ "عدو المسيح " بعد أن كان يلقب بـ "القس الصغير"!.

وظل على هذا حتى حضرته الوفاة وهو يقول لأخته: (لا تدعي قسيساً ينطق بالأباطيل والأكاذيب على قبري، في وقت لا أستطيع فيه الدفاع عن نفسي، أريد أن أدفن في قبري وثنياً شريفاً)(٣).

---

(١) الله يتجلى في عصر العلم، لمجموعة من العلماء الأمريكيين، ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان صـ٣٨.

(٢) نيتشه عدو المسيح، د/ يسري إبراهيم صـ١١، وانظر: تاريخ الفكر الأوربي الحديث، رونالد ستروبرج، ترجمة/أحمد الشيباني صـ٤٩٢.

(٣) نيتشه، د/ فؤاد زكريا صـ٢٢.

كاد لسان حال "نيتشه" أن يقول: اعلم أيها الإنسان أن الكون لا دين له، فمجريات الأمور الطبيعية من ولادة وزواج وملة ووفاة، إن الأصل فيها أن تكون من كل دلالة دينية براء [١].

وليس "نيتشه" وحده هو من ترك نصرانيته، وارتضى الإلحاد مذهباً، بل إن الكثير من الفلاسفة والعلماء وخاصة ـ أصحاب النظرة التطورية ـ قد سلكوا نفس المسلك.

وفي ذلك يقول الدكتور توفيق الطويل: (... ولكن هذه النتيجة التي أشفق منها داروين، وتابعه فيها جمهرة التطوريين في إنجلترا، وأتباع الوضعية في فرنسا، ودعاة الاشتراكية في ألمانيا، قد رحب بها مفكر ثائر جريء هو "فردريك نيتشة" ذلك أن هؤلاء قد مكنتهم جرأتهم من رفض الدين المسيحي وإنكار مبادئه)[٢].

والأشهر والأقوى في مجال الفكر والفلسفة من هؤلاء جميعاً "**إيمانويل كانط**" صاحب مذهب الواجب الأكثر شهرة على الإطلاق في الغرب عموماً، وفي ألمانيا خاصة.

يقول عنه "ريتشارد شاخت" في كتابه "رواد الفلسفة الحديثة": يعتقد بوجه عام أن كانط هو أعظم الفلاسفة المحدثين، ليس في الفلسفة الحديثة فحسب، وإنما في تاريخ الفلسفة برمته... وقد أحدث تأثيراً عارماً في أوربا والبلدان الناطقة بالإنجليزية، وترتفع هامته كأحد الشواهق في تاريخ الفكر... وينحدر كانط من أسرة فقيرة تؤمن بالعقيدة التقوية المتشددة [٣].

ومع ذلك فقد نهج "كانط" نهجاً إلحادياً، حتى في فلسفته الأخلاق ـ والتي من المفترض أن تكون دينية ـ تجده عقلياً محضاً.

---

(١) نقد الحداثة في فكر نيتشه، د/ محمد الشيخ صـ٤٦٩.

(٢) فلسفة الأخلاق، د/ توفيق الطويل صـ٢٥٧.

(٣) رواد الفلسفة الحديثة، ريتشارد شاخت، ترجمة د/ أحمد حمدي محمود صـ٢٥٩، صـ٢٦٠ بتصرف.

يقول كانط: (الأخلاق ليست بحاجة إلى الدين لنفسها قط، وإنما هي في استغناء عنه بفضل العقل العملي)[١]. فقد جَنَّب الدين ونحاه جانباً، واستغنى بالعقل بكل بساطة!!

وها هو "**سيرن كيركجورد**" فيلسوف الوجودية الكبير، في كتابه "شذرات فلسفية" يبين أعتى المفارقات في النصرانية "ألوهية المسيح" والتي لا يمكن قبولها على الإطلاق!

يقول "كير كجورد": فإذا كانت المسيحية صحيحة، فإن دعواها الأساسية ـ وهى أن الله تجسد في يسوع ـ تقود إلى مفارقة لا يمكن أن تُحل كما تُحل المفارقات عادة... ولازمة أخرى من لوازم الرواية المسيحية هي أنه إذا كان الله قد كشف عن نفسه في يسوع، فإنه يبدو أنه وهب مزايا خاصة لأولئك الذين عاصروا المسيح وعرفوه شخصياً، وهي مزايا حُرمنا نحن منها[٢].

وإزاء تلك المفارقات في العقيدة النصرانية، نجد عقيدة "الصلب" أشد مفارقة من أي شيء؛ إذ كيف يُقتل الإله ويصلب هكذا في ذل ومهانة أمام أعين العامة والسفهاء!!

ولذا وجدت تعبيراً مناسباً لتلك الرواية عند "**خوزيه كازانوفا**" حيث يقول: ((وكانت (فضيحة) الصلب العقاب على مثل هذه الجريمة العامة!))[٣].

ولذلك نجد أن البابا "بندكتس" جوزف راتسنغر يقول: لقد رأينا بأن هناك نوعًا من المرض في الدين، وهو مرض جد خطير، يدفع بالضرورة إلى استعمال الضوء الإلهي للعقل.... لقد عبر "كورت هوبنر" قائلاً... التحرر من ذلك العمى الذي تراكم

---

(١) فلسفة كانط التربوية، د/ طيبة ماهر، ترجمة / عبد الرحمن العلوي صـ١٩٩.

(٢) تلخيص كتاب شذرات فلسفية، سيرن كيركجورد، ترجمة د/ عبد الرحمن بدوي، مجلة (المجلة)، عدد ٩٢/ ١٩٦٤، صـ١١.

(٣) الأديان العامة في العالم الحديث، خوزيه كازانوفا، ترجمة / قسم اللغات الحية والترجمة، جامعة البلمند صـ٨٢.

عبر العصور، ذلك أن الدين اليوم لم يعد باستطاعته قول أي شيء للإنسان، لأنه يناقض الفكرة الإنسانية لهذا الأخير حول العقل والأنوار والحرية(١).

يقول الأستاذ أنور الجندي: هناك حقائق كثيرة تتكشف اليوم على أيدي الباحثين قوامها:... الاعتراف بأن الكتب المقدسة الغربية هي كتب بشرية، وأن بها تناقضات، وأنها ليست الرسائل المنزَّلة على الرسل(٢).

فما أثبته المسلمون قديماً ـ ومن خلال القرآن الكريم ـ عن تحريف كتب أهل الكتاب، يثبته اليوم باحثو الغرب وعلماؤهم ومفكروهم.

ومن هؤلاء نجد الدكتور **موريس بوكاي** العالم الفرنسي الشهير، والذي ترك النصرانية واعتنق الإسلام بعد مراجعته للعهدين "القديم والجديد" وإثباته "بالطرق العلمية والتاريخية" مدى التحريف الذي لحق هذه الكتب، وراجع أيضاً القرآن الكريم بنفس الموضوعية والدقة والأمانة العلمية. يقول الدكتور موريس بوكاي:

أدركت بعد الانتهاء منها أن القرآن لا يحتوي على أية مقولة قابلة للنقد من وجهة نظر العلم في العصر الحديث، وبنفس الموضوعية قمت بنفس الفحص على العهد القديم والأناجيل، أما بالنسبة للعهد القديم فلم تكن هناك حاجة للذهاب إلي أبعد من الكتاب الأول ـ سفر التكوين ـ فقد وجدت مقولات لا يمكن التوفيق بينها وبين أكثر معطيات العلم رسوخًا في عصرنا، وأما بالنسبة للأناجيل، فما نكاد نفتح الصفحة الأولى منها حتى نجد أنفسنا دفعة واحدة في مواجهة مشكلة خطيرة ـ شجرة أنساب المسيح ـ فنص إنجيل متي يناقض بشكل جلي إنجيل لوقا، وهذا الأخير يقدم لنا صراحة أمراً لا يتفق مع المعارف الحديثة الخاصة بقدم الإنسان على الأرض...

---

(١) جدلية العلمنة، العقل والدين، يورغن هابرماس، البابا بندكنس، جوزف راتسنغر، ترجمة د/ حميد لشهب صـ٨٠.

(٢) ترشيد الفكر الإسلامي، أنور الجندي صـ٧١.

غير أن وجود هذه الأمور المتناقضة، وتلك التي لا يحتملها التصديق، وتلك الأخرى التي لا تتفق والعلم، لا تضعف الإيمان بالله، ولا تقع المسئولية فيها إلا على البشر (١).

فتلك الدراسة الرائعة التي قام بها بوكاي؛ مثلت منعطفاً حقيقياً في إثبات تحريف التوراة والإنجيل بالطرق العلمية الحديثة، بعدما درس العشرات من المسائل المختلفة في العهدين "القديم والجديد"، وأثبت "علمياً" عدم توافقها مع الحقائق الثابتة على الإطلاق، وعلى النقيض تماماً، وجد أن القرآن الكريم متفق في كل صغيره وكبيرة مع نواتج العلم وثوابته.

والجدير بالذكر أن الرجل لم يتخل عن النصرانية ويعتنق الإسلام إلا بعد الانتهاء من تلك الدراسة.

يقول الدكتور بوكاي: كثيرون من قراء الأناجيل يشعرون بالحرج، بل الحيرة، عندما يتأملون في معنى بعض الروايات، أو عندما يقارنون روايات مختلفة لحدث واحد مروي في كثير من الأناجيل...

إن المادي الملحد لا يرى في المسيحية الكلاسيكية إلا نظاماً ابتناه البشر منذ حوالي ألفى عام لإرساء سلطة لأقلية قليلة على بشر مثلها.... فهذه الكتب تحتوى على كثرة من الأمور التي لا تتفق مع المعطيات العلمية الحديثة، ومع المتناقضات والأمور غير المعقولة(٢).

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، د/ موريس بوكاي صـ١٧.

(٢) السابق صـ٦٧، صـ١٤٩.

كيف أصبح الغرب نصرانياً (علاقة الأمس باليوم)

وقد ذكرت سابقاً أن المسيحية لم تكن أبداً ـ وعبر تاريخها القديم والحديث ـ معتقداً مهماً ومقنعاً تمام القناعة لأصحابها، وأن ثمة أسطورة "تقوى الماضي" كما جاء على لسان "رودني ستارك" والتي أقام عليها العديد من الأدلة التاريخية.

يقول "رودني ستارك": عبر "أندرو غريلي" عن هذا الأمر بوضوح فقال: لا يمكن لزوال الديانة المسيحية من أوروبا أن يحدث... لأن تحول أوروبا إلى الديانة المسيحية لم يحدث أصلاً؛ أوروبا المسيحية لم توجد قط!![1].

ثم عقب "ستارك" بقوله:.... المسيحية التي شاعت في **أوروبا** لم يتحول إليها معظم أبناء القارة إلا بشكل اسمي في أفضل الظروف، وقد قامت على كنيسة مؤسساتية تدعمها الدولة تحاول مد سلطانها ليس عبر توجيه البعثات التبشيرية إلى عموم الناس، بل من خلال تعميد الملوك... بعبارة أخرى: كانت المسيحية التي سادت في أوروبا مزيجاً مرقعاً متقن التفاصيل، يتألف من كنائس الدولة التي رضيت بولاء النخب لها، لضمان الطاعة والامتثال دون بذل مجهود لتحويل الجماهير من الفلاحين إلى الديانة.... فقد كان تحويل إحدى **ممالك شمال أوروبا** إلى المسيحية لا يتطلب إلا تعميد النبلاء واعتراف الدولة رسمياً بسلطة الكنيسة!![2].

تلك هي الطريقة التي انتشرت بها النصرانية في البلاد الأوربية ـ وغير الأوربية أيضاً ـ صفقة بين رجال الدين والطبقة الأرستقراطية الحاكمة، لضمان الاستقرار السياسي والديني لتلك الممالك... يقول ستارك: ففي سنة ١٠١٦م توج مسيحي ملتزم هو الملك " كانوت" ملكاً **للدنمارك** تُعد هذه السنة ـ اليوم ـ هي التاريخ الرسمي لتحول الدنمارك إلى المسيحية، بعد ذلك جاء تحويل **النرويج** للمسيحية، حيث استولى رجل قد

---

(١) فلترقدي بسلام أيتها العلمنة، رودني ستارك، ترجمة / رامي طوقان، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٥٨.

(٢) السابق صـ٥٨، صـ٥٩.

تربى في إنجلترا واعتنق المسيحية هو "أولاف تريغفاسون" على العرش فحول البلاد بالقوة، وقتل بعض من عارضه، وحرق ممتلكاتهم...!![1].

وتأكيداً لما قاله "ستارك" يقول "توماس أرنولد": .... التعميدات المسيحية التي كان "شارلمان" يفرضها على "السكسونيين الوثنيين" بحد السيف، وكان المبشرون في بلاد الدنمارك وهم القسيس "أنسجار" وخلفاؤه أحق بصفة التبشير من الملك "كانوت" الذي استأصل الوثنية بالسيف والنار، ولقد فرضت المسيحية على شعوب "ليفونيا" فرضاً!...

والملك "أولاف" الذي كان يقوم بذبح هؤلاء الذين أبوا الدخول في المسيحية، أو بتقطيع أيديهم وأرجلهم، أو بنفيهم وتشريدهم، وبهذه الوسائل نشر الدين في "فيكن" بأسرها[2].

ويقول "توماس أرنولد" عن نشر النصرانية في المجر:... ظل الإسلام قائماً بين "الباشغردية" من أهل المجر حتى سنة ١٣٤٠م حين أرغم الملك "شارل روبرت" جميع رعاياه غير المسيحيين أن يعتنقوا الدين المسيحي أو يغادروا البلاد.... وفي سنة ١٧٠٣م جمع "دانيال بيتروفتش" الأسقف الحاكم في ذلك الحين القبائل وأخبرهم أن الأمل الوحيد لإنقاذ بلادهم ودينهم ينحصر في القضاء على المسلمين الذين يعيشون بين ظهرانيهم، وكان من أثر ذلك أن الذين لم ينقضوا عهد الإسلام، وأبوا أن يدخلوا في المسيحية من مسلمي الجبل الأسود، قتلوا في ليلة عيد الميلاد في ثبات ورباطة جأش![3].

---

(١) فلترقدي بسلام أيتها العلمنة، رودني ستارك، ترجمة / رامي طوقان، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٥٩.

(٢) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة د/ حسن إبراهيم وآخرون صـ٣٠، صـ٣٢. وراجع: الإسلام في عيون غربية، د/ محمد عمارة صـ١٤١ وما بعدها.

(٣) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة د/ حسن إبراهيم وآخرون صـ٢٢٣، صـ٢٢٦.

وبنفس الطريقة التي انتشرت بها النصرانية في الدنمارك، والنرويج، والمجر، انتشرت في **روسيا** أيضاً!!

... فقد جهر زعيم الروس "فلاديمير" بالمسيحية، وفي اليوم التالي لتعميده، نبذ الأوثان التي عبدها أجداده، وأصدر مرسوماً يقضي بأن يذعن الروس كافة، سادة وعبيداً، أغنياء وفقراء للتعميد وفق طقوس الديانة المسيحية، وهكذا أصبحت المسيحية ديانة الروس...!

.... وفي القرن الثامن عشر بذلت الحكومة الروسية جهوداً جديدة لتنصير القبائل الوثنية، والتتار الذين ارتدوا عن دينهم، وفي سنة ١٧٧٨م أمرت الإمبراطورة "كاترين الثانية" بأن يوقع كل من هؤلاء الحديثي العهد بالمسيحية على إقرار كتابي بترك خطاياهم الوثنية، والتمسك بالمسيحية والثبات عليها،... وعلى الرغم من هذا كله، لم يكن هؤلاء "التتار" المعمدون إلا مسيحيين إسماً، وسرعان ما تركوا المسيحية واعتنقوا الإسلام [١].

تلك هي طريقتهم لنشر عقيدتهم!! فهل يتصور عامة الأوربيين الآن ـ بغض النظر عن المثقفين وقارئي التاريخ ـ أن هذا هو تاريخ أجدادهم في اعتناق النصرانية.

فالمقصود ـ وكما ذكرت ـ في تلك العقيدة التي حُرفت أصولها وكتبها، وصارت تعج بالكثير من العقائد المنافية للحقائق، بل المنافية للعقول!، فلم يكن من سبيل لنشرها سوى تلك الطرق القائمة على القهر والعنف والإجبار.

فلا عجب الآن والغربيون يخرجون من نصرانيتهم، ويفضلون الإلحاد عليها!، ومنهم من يعرف الإسلام معرفة حقيقية "منافية لتلك الصورة المشوهة المستقرة والراسخة لدى الغرب"، فيعتنقه بكل قناعة ورضا واطمئنان، وسيأتي الحديث عن ذلك إن شاء الله تعالى.

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة د/ حسن إبراهيم وآخرون صـ٢٧٥، صـ٢٧٨.

ويبدو أن تلك الصورة العنيفة لإجبار الشعوب على التنصر لم تكن قاصرة على الشعوب الأوربية فقط، بل على الجميع، حتى الشعوب الأفريقية على حالها المعروف!.

يقول "توماس أرنولد" عن **الأحباش الأفارقة:**

((اتخذ الملك "سيف أرعد" (١٣٤٢-١٣٧٠م) تدابير صارمة ضد المسلمين في مملكته، تقتضي بإعدام كل من أبى الدخول في المسيحية، أو نفيهم من البلاد، وقد كانوا حوالي مائتي ألف دخلوا الإسلام بالدعوة... والملك "جون" سنة ١٨٨٠م، أرغم حول ما يقرب من خمسين ألف من المسلمين على التعميد، كما أجبر عشرين ألفاً من القبائل الوثنية، ونصف مليون من قبائل الجلا،... ولكن لما كان تنصيرهم لم يتجاوز التعميد ودفع العشور، فلا عجب إذا عرفنا أن هذه الوسائل التي تقوم على العنف والإرهاب، لم تؤد إلا إلى زيادة العداوة والبغضاء في نفوس الأحباش المسلمين والوثنيين نحو الدين المسيحي))[١].

ولذلك لم تكن النصرانية يوماً بالنسبة لمتبعيها (قهراً أو إرثاً) كالإسلام بالنسبة لمتبعيه، فبين هذا وذاك فروقاً عظيمة جداً يصعب تداركها، وذلك أن متبعي الإسلام يتمتعون بعقيدة حقيقية قوية ومتماسكة، لا تمت إلى الباطل أو الشك بأدنى صلة، فضلاً عن حريتهم التامة في اعتناقها.

ولنضرب مثالاً واحداً للمقارنة، ففي **روسيا** التي سبق الحديث عنها مثلاً، يقول أرنولد:

((دونت الأخبار كثيراً عن دخول الناس في هذا الدين ـ الإسلام ـ أفواجاً، ولاسيما على أثر صدور مرسوم حرية التدين في سنة ١٩٠٥م، مثال ذلك ما قيل من أن إحدى وتسعين أسرة اعتنقت الإسلام في قرية "أتومقا" في سنة ١٩٠٩م، وإن عدداً بلغ

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة د/ حسن إبراهيم وآخرون صـ١٣٥، صـ١٤٢.

من الكثرة حول ٠٠٠ ر٥٣ نسمة أسلم بين سنتي ١٩٠٦م، ١٩١٠م، وقد قيل إن أكبر الفضل في نجاح هذه الدعوى يرجع إلى مستوى الحياة الأخلاقية في المجتمع الإسلامي، الذي كان أكثر رقياً، كما يرجع أيضاً إلى شعور التآخي الذي كان يشيع في هذا المجتمع، والذي كان أكثر تماسكاً وقوة.... ومن جهة أخرى سارت الدعوة الإسلامية قدماً في حماسة بالغة، فقد كان كل مسلم ساذج أمي داعية إلى دينه، وعجزت القبائل الوثنية وأشباه الوثنيين أن تقاوم هؤلاء الدعاة، وفي كثير من القرى التي عُمد (تنصر) أهلها، انطلق الرجال يحترفون "الحياكة" في القرى الإسلامية، وهناك يتحولون إلى الإسلام، ثم يعودون إلى قراهم حُمساً يجلبون معهم أفكار إسلامية يكون لها أثرها في بيوتهم!))[١].

فهذا مثال واحد في بلد واحد، يتبين من خلاله مدى الفروق الهائلة بين العقيدتين (النصرانية والإسلامية) والتي لا يمكن أبداً أن تشكل ترددا أو شكاً يسيراً في اعتناق إحداهما!! فلا شك أن النصرانية يعتريها عوار شديد من جميع جوانبها، وأنها باتت تبهت يوماً بعد يوم في قلوب وعقول متبعيها، وهذا ما يفسر الوضع الراهن لها، وتلك المفارقات العظيمة التي تحدث في الغرب.

يقول " سيزار ميرليني": تخضع المسيحية لتحولات عميقة، فالكنائس الأوروبية، الكاثوليكية والبروتستانتية على حدّ سواء، تقترب على ما يبدو من فترة انحطاط على الرغم من وجود غنى روحي في بعض الدوائر، برامج إعلامية ناجحة وجذّابة أحياناً، لكن الممارسات العبادية العادية تشهد إهمالاً متزايداً... والمفاهيم المسيحية الأصيلة لعدد من الأحزاب الوسطية في غرب أوروبا بهتت إلى حد كبير[٢].

---

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة د/ حسن إبراهيم وآخرون صـ٢٨٠.

(٢) هل دخل العالم مرحلة ما بعد العلمانية، سيزار ميرليني، ترجمة / طارق عسيلي، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ١٦٠.

ولا تزال تبهت يوماً تلو الآخر، وكلما تحررت العقول من مكبلات الماضي، ومضت في طريقها تتلمس طوق النجاة من تلك الظلمات التي أحاطت بها من كل مكان.

ولكن ثمة **فائدة كبيرة حصل عليها الغرب مؤخراً**، أن قداسة النصرانية وهيبتها قد سقطت لدى العامة والخاصة، وأنها لا تعدو بالنسبة إليهم كونها ديناً كباقي الأديان، يُقبل أو يُرد، أو يستبدل بدين آخر، أو يستبدل بلا دين أصلاً، والشواهد على ذلك كثيرة جداً ويصعب حصرها.

يقول الدكتور حميد لشهب: ما حدث بالتأكيد في الغرب هو أن الدين فقد هالته القدسية عند الإنسان العادي، وأصبح الحديث عنه من غير إكراهات ولا مراقبة ولا حساب ولا عقاب من المتابعة تحت ذريعة الهرطقة والإساءة للعقيدة، لا أحد يحاكم لتشكيكه بالدين، أو الجهر بعدم وجود الله، أو إظهار إلحاده علانية، أو التصريح بعدم إيمانه بالتثليث وكل المنظومة الدينية المسيحية!... الفرد يقرر مصيره بوعي تام من غير إملاءات أسرية واجتماعية، بل انطلاقاً من قناعاته الذاتية وميوله في الحياة...

ما وصلت إليه أوروبا أن الدين المسيحي ليس إلا ديناً من بين الأديان، لا الأفضل، ولا الأسوأ، بل يعيش مع مجموعة من الأديان الأخرى... فامتلاك الحقيقة لم يعد حكراً على دين دون سواه، بل أتيحت الفرصة ليعبر كل معتقد عن حقيقته، وبفعل منطق المقارنة بين الأديان...[1].

إن النصرانية في الغرب الآن نقع في دائرة شك عظيمة من قبل العامة والعلماء والفلاسفة على السواء، وبسبب تلك العقائد – ألوهية المسيح – الصلب – التثليث... الخ – التي لا يستطيع العقل الغربي المتحرر أن يتقبلها على أي وجه!

(١) ما قبل "ما بعد العلمانية"، د/ حميد لشهب، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ١٥٠.

فضلاً عن المفارقات والأخطاء الجسيمة الموجودة في الأناجيل، والتي كان العلم الحديث مؤكداً على زيفها وخطئها،... وتبقى العقول والقلوب حائرة ومترددة أحياناً، وتاركة كل ذلك جانباً، بل ونبذه والنفور منه أحياناً أخرى!!

كل ذلك يقع في مجتمعات مفعمة بالحرية وحق تقرير المصير، بلا أدنى إلزام من أي جهة، أو أي أحد، يدخل إلى سوق الأفكار والمذاهب والأديان وليختر ما يشاء!!

ثانياً: الإســـلام

بعد الحديث عن النصرانية وما آلت إليه في الغرب، يأتي الحديث عن الإسلام **وعقيدته القوية المتماسكة بلا أدنى خلل أو شك**، تلك العقيدة التي تأسر القلوب وتملؤها إيماناً وخشية، وتُقنع العقول وتعلو بها فهماً وعلماً، وتجعل حياة متبعيها راحة وطمأنينة وسكناً.

وشريعة الإسلام المتكاملة المتوازنة، التي تُيسر للإنسان حياته من جميع جوانبها، وتحافظ على كرامته وإنسانيته وحقوقه، وتحثه على أداء واجباته وأعماله بإتقان وإخلاص ومراقبة لله (ﷻ)، والمحافظة على حقوق الآخرين، وعدم التعدي عليهم بأي نوع من أنواع التعدي، وكذلك حفظ حقوق المجتمع، أو الدولة، أو الأمة، والعمل على التوازن بين الأفراد ومجتمعاتهم، وإرساء وتفعيل المبادئ العامة مثل: العدل والحرية والمساواة والتكافل... الخ.

فالإسلام عقيدة وشريعة ما جاء إلا لينتشل البشرية من كبوتها، ويخرجها من ظلماتها الحالكة، ويأخذ بيدها إلى طريق الحق والنور.

قال تعالى: ﴿ **هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ [سورة التوبة: ٣٣].

إن النظرة الكلية الشاملة لتحرك الأحداث في العالم الإسلامي مهما كانت سريعة فإنها تعطي صورة أكيدة لقدرة الإسلام على التفاعل مع الإنسانية، وترسم أثره في

التاريخ، وتكشف عن دوره في تحليل مجراه، والتأثير الواضح المستمر في تطور البشرية وأحداث العالم، فقد كان الإسلام دعوة الرشد الإنساني، وإيذاناً ببلوغ الإنسانية أول مراقي اكتمالها العقلي والروحي، فقد كانت الأديان قبل الإسلام محلية أو إقليمية أو متصلة بشعب أو أمة، فلما جاء الإسلام خاتماً للأديان كان عاماً للبشرية كلها(١).

فدين الإسلام قد اكتمل، قال تعالى: ﴿..... **الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.....** ﴾ [سورة المائدة: ٣].

والرسالات خُتمت فلا رسالة بعد، قال تعالى: ﴿ **مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا** ﴾ [سورة الأحزاب: ٤٠].

وقال (ﷺ): «..... **وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ** »(٢).

وقال (ﷺ) أيضاً: «..... **وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ** »(٣).

والله (ﷻ) لن يقبل من أحد غير الإسلام ديناً، قال تعالى: ﴿ **وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ** ﴾ [سورة آل عمران: ٨٥].

فقد بعث النبي (ﷺ) بتلك الرسالة "رسالة الإسلام" إلى الثقلين جميعاً، فجاءت الرسالة تامة كاملة ناسخة لجميع الأديان، فيها الهدى والحق والنور لجميع البشرية، وفيها الغني عن غيرها من الأديان والفلسفات والمذاهب والأفكار.

يقول الدكتور فتح الله بدران: ولعله قد آن الأوان، وسمح المكان والزمان، أن ننفض عن عيوننا الكرى، وأن نُفِذ السير ونواصل السرى، لنسترد أفكارنا المسلوبة،

---

(١) الإسلام في أربعة عشر قرناً، أنور الجندي صـ٣٧.

(٢) رواه مسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضيع الصلاة، حديث رقم (٥٢٣).

(٣) رواه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب خاتم النبيين، حديث رقم (٣٥٣٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب ذكر كونه (ﷺ) خاتم النبيين، حديث رقم (٢٢٨٦).

وآراءنا المغصوبة، ومواريثنا المنهوبة، فنرد اللواء إلى اللواء، ونرد الحياة إلى الحياة، ونعيد إلى العرين ظعينه، وإلى البحر ربانه وسفينه، وعندئذٍ نتلقف الكرة، ونمسك بالزمام، وعندئذٍ تتلفت الدنيا وتنادي بالسلام، فيسود العدل والحق جميع الأنام، وتقود العروبة والإنسانية في عز الإسلام(١).

فبعد إفلاس الحضارة الغربية يبحث الأوربيون عن طريق، نحن المسلمون نشعر أنه لدينا، إن فكرنا الأساس قادر على أن يقدم لهؤلاء ما يبحثون عنه... لقد دخلت الحضارة الغربية مرحلة المحاق، ولم بعد في استطاعتها أن تعطي شيئاً إلا عطاء القلق والتمزق وأزمات التدمير الاجتماعي والخلقي(٢).

يقول الشيخ محمد الغزالي: **إن العصر للإسلام وحده،** لو كان له رجال ولو كان له دعاة.... وإذا نظرنا للمسيحية التي تسود الغرب وجدناها قبلت من الإضافات والبدع ما يستحيل على العقل البشرى قبوله، ومن حق هذا العقل أن يرفض النقائض ويعتزل دعاتها ويسير بعيداً عنهما، والحضارة الحديثة في خصومتها للمسيحية معذورة(٣).

لقد ذكرت ـ سابقاً ـ أن الإنسان الغربي تحرر من كافة القيود والأغلال بكافة أنواعها، وأن ثمة إنسان غربي حر يعتقد ما يشاء في أي وقت شاء، قد وُلد من جديد، وأن المنافسة الآن على أشدها بين الأديان ـ خاصة النصرانية والإسلام ـ والمذاهب والأفكار ـ وخاصة فكرة الإلحاد ـ وأن الكل يعرض بضاعته من جديد، وبثوب جديد، وبطريقة جديدة، حتى يستطيع تحقيق أكبر قدر ممكن من المكاسب!

---

(١) الفلسفة الحديثة في الميزان، د/ محمد بن فتح الله بدران صـ١٩.

(٢) نحن وحضارة الغرب، أنور الجندي صـ٣٣، صـ٣٨، وانظر: الدين والحضارة الإنسانية، د/ محمد البهي صـ٨٧.

(٣) ظلام من المغرب / محمد الغزالي صـ١٢، صـ٣٦.

ويأتي الإسلام بعقيدته الصحيحة، وشريعته المتكاملة، وحضارته العظيمة المثيرة للفخر والاعتزاز، وتاريخه المشرف الحافل بالروائع، ليكون فارساً لا يُبارى لذلك الميدان، قائماً على أصوله من الوحي المنزه عن الخطأ والنقصان، من كتاب ربنا وسنة نبينا (ﷺ) واجتهادات أئمته المقبولين المعتمدين لدى عموم الأمة.

وقد كشف الباحثون أن **الإسلام هو في وقت واحد دين ونظام اجتماعي** يقوم على أساس العقيدة والشريعة والأخلاق، وأن ليس في الإسلام طبقة من رجال الدين لتفسير الأسرار، وأن الإسلام دين قائم بذاته لا يشبه الأديان الأخرى... ويمتاز الإسلام بالنظرة الشمولية في الماضي والحاضر والمستقبل، فضلاً عن النظرية الإنسانية من حيث أن الإسلام يخاطب الإنسان والناس جميعاً [١].

وثمة مظهر من أهم مظاهر القوة في الإسلام، كونه ديناً ونظاماً اجتماعياً في آن واحد، حتى تكون الأمة الإسلامية كلاً متماسكاً ومترابطاً ومتكاملاً، أمة تحيا داخلياً بعقيدتها، وتحيا خارجياً بشريعتها في تكامل وانسجام وتوازن يحافظ بعبقرية على المجتمع ككل، وعلى كل واحد من أبنائه كفرد من أفراده.

وعلى كل حال **فالإسلام القائم على أصوله هذه، يمثل قوة ذاتية تدفع به في ربوع الأرض** دون جهد يذكر من أبنائه وللأسف!فمع تأخرنا عن ركب الحضارة، وعدم اكتراثنا بمتطلبات الدين والدنيا، وتكاسلنا عن حوار الآخر وبيان عقيدتنا وشريعتنا، إلا أن تلك العقيدة تطرق كل يوم قلوب الآلاف من البشر حول العالم فيسلمون لها ويؤمنون بها دون استئذان من أي أحد.

يقول الدكتور مصطفى محمود:..... وهذه معجزة الإسلام، فهو يتقدم وينمو بقوته الذاتية ويحدث هذا في أشد أحوال المسلمين تأخراً وانحطاطاً[٢].

---

(١) ترشيد الفكر الإسلامي، أنور الجندي صـ٧٢.

(٢) الإسلام في خندق، د/ مصطفى محمود صـ١٦٨.

ثمة مظهر آخر من مظاهر قوة الإسلام وحيويته، وهو الارتباط بين تطبيق نصوصه وشرائعه من جهة، وبين التطور والازدهار الحضاري من جهة أخرى، بخلاف غيره!!

يقول الدكتور أحمد الطيب: وقد ثبت تاريخياً أن المسلمين حين أبدعوا وتحضروا وصدّروا ذلك للعالم كله، كانوا يسندون ظهورهم إلى نصوص القرآن والسنة وتوجيهات الإسلام، وأنهم تراجعوا حين حِيل بينهم أو حالوا هم أنفسهم بينهم وبين مصادر القوة في هذا الدين...، بعكس حضارة الغرب التي أصابها الضعف والتفكك حين كانت ترفع لافتة الدين في القرون الوسطى، فلما تمردت على الدين وأدارت له ظهرها نمت وترعرعت فيما يُعرف بعصر النهضة أو عصر التنوير، وهذه مفارقة أو مقارنة لا ينبغي إغفالها في تمييز الإسلام وقدرته الخارقة على صنع مجتمعات غاية في الحضارة العلمية والثقافية والفنية، وأن حضارة الإسلام مرتبطة بالإسلام ارتباطاً معلول بعلته، توجد حين يوجد الإسلام، وتتلاشى حين ينحسر أو يغيب(١).

ذلك هو دين الإسلام، دين الحق، ورسالته خاتمة الرسالات، ورسوله (ﷺ) خاتم الرسل، وأصوله وعقائده وشرائعه مبنية ومؤسسة على الكتاب والسنة.

فهو **دين الله تعالى للناس جميعاً**، العربي والأعجمي، الأبيض والأسود، الشرقي والغربي، الغني والفقير، العالم والجاهل... الكُل إلى قبلة واحدة، كلهم متساوون، ينطبق عليهم قانون واحد لا يعرف التفريق.

فلا عجب أن المبادئ العليا مثل (العدل والمساواة والحقوق والحريات..... الخ) والتي نادى بها العالم "المتحضر" عشرات السنين، ولم يستطع إلى تحقيق ذلك سبيلا!!، قد كفلها الإسلام وطبقها تطبيقاً عملياً في غاية الروعة منذ ما يربو على

(١) كلمة الإمام الأكبر د/ أحمد الطيب في المؤتمر الدولي العام الخامس والعشرين للمجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مجلة الأزهر، عدد ربيع أول ١٤٣٧هـ، ديسمبر ٢٠١٥م، صـ٤٥٧.

أربعمائة وألف عام! حينها كانت تلك الأمم المتشدقة دائماً بالحضارة والرقي والحرية، تجثو على ركبتيها مطالبة بتخفيف المظالم من بعضهم البعض!

تلك الأمم ذات التاريخ الحافل بسجلات الظلم، والقتل، والإبادات الجماعية، والتطهيرات العرقية، ونهب وسلب ثروات البلاد المستضعفة، وإثارة الفتن، وإحياء النعرات القديمة، وإقامة الحروب، واستخدام أسلحة الدمار الشامل "والتي حرموها دولياً!!"، وإباحة الفوضى والانحلال والعرى بدعوى "الحرية".... الخ.

هذه الأمم الآن تجني ثماراً لأعمالها، لم تكن تتوقعها في يوم من الأيام!، فهي اليوم:

– تجني القلق، والتوتر، والاكتئاب، وغيرها من الأمراض النفسية والعصبية المختلفة.

– تجني الخوف، واليأس، والقنوط، والملل، والسأم، حتى تصل في كثير من الحالات للانتحار!

– تجني الانحلال، والعرى، والفسق، وأولاد الزنا، وهتك الأعراض، والاغتصاب، وحمل المراهقات!

– تجني التفكك الأسري، وقلة الزواج، وقلة الإنجاب، وشيخوخة المجتمع.

– تجني إدمان المخدرات والكحوليات، وضياع الشباب، وفقدان الهوية.

– تجني الأخطر من ذلك كله: الفراغ العقدي، والخواء الفكري، وضياع الدين!!

فقد حققت لهم ثورتهم المادية والعلمية كل المكاسب والمنافع المادية، ولكن حياتهم الدينية والروحية والأخلاقية والنفسية والاجتماعية قد تم تدميرها تدميراً كلياً في خضم تلك الحرب المادية التي استمرت عدة قرون، فاستيقظ الغربيون من هيستيريا المادة، وهوس التكنولوجيا على ذلك الدمار النفسي والاجتماعي غير المحتمل!

وها هم اليوم يدركون حقيقة ما وقعوا فيه من أخطاء جسيمة، وفظائع لا تصفها العبارات، ويدركون أن لا ملجأ من الله تعالى إلا إليه، وأنه لابد من الرجوع إلى الدين، لإحياء ما مات من القلوب، وإنارة ظلماتها الحالكة، وإرجاع النفس إلى فطرتها الطيبة

التي فطرها الله تعالى عليها، وأن ثمة أمور قلبية وروحية ونفسية هي أهم بكثير من حياة مفعمة بإمكانات مادية ورفاهيات لا حصر لها.

وانهارت تلك الحضارة الزائفة تحت وطأة الخراب العقدي والخلقي، فقد أدركوا أن امتلاك الآلات المتطورة، والأجهزة الحديثة، والطائرات، والغواصات، والأسلحة النووية، وكل أدوات الردع والسيطرة على الأمم الأخرى، لا تساوي شيئاً أمام تلك النفس المُدَمرة، اليائسة، الخربة، والتي فقدت معظم قواها الحقيقية! وأن الدين هو النجاة لا غير، وأن الرجوع إلى الله تعالى هو السبيل الوحيد لحياة آمنة ومستقرة، وهو السبيل الوحيد لحياة حقيقية متوازنة متكاملة.

وقد ذكرت ـ سابقاً ـ أن النصرانية قد نفقت عندهم نفوقاً عاماً، وأنها في ظل حرية العقل ونتائج العلم الحديث، قد باتت باهتة مطموسة المعالم، بعيدة كل البعد عن الحق، متوجهة في طريقها إلى حيث لا تجد القبول أو الاقتناع.

قوة العقيدة الإسلامية

وها هو الإسلام ـ بعقيدته الصحيحة المتأصلة بالكتاب والسنة والعقل السليم ـ يخطو خطوات رائعة في الغرب، وبقوته الذاتية التي تأخذ بالألباب والعقول، فيزداد حضوراً يوماً بعد يوم، ويتشرف باعتناقه العشرات، بل المئات والآلاف من كافة الجنسيات والطوائف كل يوم، وهذا ما حدث في الشرق أولاً، ومنذ ظهور الإسلام.

يقول كيتاني: ((إن انتشار الإسلام بين نصارى الكنائس الشرقية، إنما كان نتيجة شعور باستياء من السفسطة المذهبية التي جلبتها الروح الهيلينية إلى اللاهوت المسيحي، أما الشرق الذي عرف بحبه للأفكار الواضحة البسيطة، فقد كانت الثقافة الهلينية وبالاً عليه من الوجهة الدينية، لأنها أحالت تعاليم المسيح البسيطة السامية إلى عقيدة محفوفة بمذاهب عويصة مليئة بالشكوك والشبهات، فأدى ذلك إلى خلق شعور باليأس، بل زعزع أصول العقيدة الدينية ذاتها، فلما أهلت آخر الأمر أنباء الوحي

الجديد فجأة من الصحراء، لم تعد تلك المسيحية الشرقية التي اختلطت بالغش والزيف، وتمزقت بفعل الانقسامات الداخلية، وتزعزعت قواعدها الأساسية، واستولى على رجالها اليأس والقنوط من مثل هذا الريب، لم تعد المسيحية بعد ذلك قادرة على مقاومة إغراء هذا الدين الجديد الذي بدد بضربة من ضرباته كل الشكوك التافهة، وقدم مزايا جليلة إلى جانب مبادئه الواضحة البسيطة التي لا تقبل الجدل، وحينئذ ترك الشرق المسيح وارتمى في أحضان دين نبي بلاد العرب...))[1].

وأحببت أن أستشهد بهذا النص لكاتب غربي عن أول معركة للإسلام مع النصرانية بعد بعثة النبي (ﷺ)، حيث كان انتصار العقيدة الإسلامية فيها مبنيي على سببين:

الأول: أن العقيدة الإسلامية عقيدة صحيحة وسليمة مؤسسة على الوحي المنزه بلا أدنى شك.

الثاني: أن العقيدة النصرانية باتت مشوهة المعالم، محرفة النصوص، مختلطة بغيرها من الثقافات والفلسفات المختلفة التي لا علاقة لها بالوحي والحقيقة، فضلاً عن نسخها بشريعة الإسلام.

ولازال هذا الكلام واقعاً ملموساً حتى الآن! فذلك هو **بيت القصيد** ومنبع الأحداث! فالنصارى شرقاً وغرباً يخرجون من دينهم بسبب عدم قناعتهم بتلك النصوص والعقائد، ويعتنقون الإسلام لعكس هذا السبب تماماً.

فمنذ زمن ليس بالبعيد – إبان فترة الاستعمار البريطاني لمصر – أعلن "اللورد هيدلي" إسلامه، وشكره لله تعالى قائلاً:

إنه وإن كان شكري لله على كرمه وعنايته كان متأصلاً فِيَّ منذ صغري وأيام حداثتي، فإنني لا أستطيع أن أشاهد ذلك إلا من خلال السنين القليلة الماضية، التي قرع

(١) الدعوة إلى الإسلام، توماس أرنولد، ترجمة د/ حسن إبراهيم وآخرون صـ٨٩.

فيها الدين الإسلامي لبي حقاً، وتملك رشدي صدقاً، وأقنعني نقاؤه، وأصبح حقيقة راسخة في عقلي وفؤادي، إذ التقيت بسعادة وطمأنينة ما رأيتها قط من قبل، كما أستنشق هواء البحر الخالص النقي، وبتحققي من سلاسة الإسلام وضيائه وعظمته ومجده، أصبحت كرجل فر من سرداب مظلم إلى فسيح من الأرض تضيئه شمس النهار(١).

ويذكر "توماس أرنولد" موقف لرجل من قبائل الجلا الحبشية، قد انتزع من بلده منذ طفولته، وبيع بيع الرقيق في "جدة" فسأله رجل: ألا يزال يضمر السخط نحو هؤلاء الذين سرقوه وأسلموا حياته للعبودية في أقاصي الأرض؟، أجاب الرجل: إن شيئاً واحداً قد عوضني، وهو أني لم أعد غارقاً في الجهل بين عبدة الأوثان! ما أعجب عناية الرحمن! تلك التي جئت بفضلها إلى بلاد الرسول (ﷺ) هذه، وتوصلت بها معرفة الدين!، آه! ما أشد حلاوة الإيمان! صدقني أيها الرفيق العزيز، إنه أمر يعجز كل قلب عن الإفصاح عنه، كم أتمنى أن يهديك الله إلى تلك المعرفة السماوية؛ ولكني موقن أن الله سيرعاك حتى لا تهلك قبل أن تدخل في هذا الدين، حقاً ما أجمل أن أراك مسلماً، وأن تصبح واحدًا منا؛ ولكني أعرف أن الأجل بيد الله، يفعل ما يشاء(٢).

تلك هي قوة العقيدة الإسلامية وصدقها ونقاؤها، تلك هي العقيدة الراسخة في العقل والفؤاد، على حد تعبير "هيدلي".

يقول المؤرخ الكبير "ول ديورانت": وهل يستطيع إنسان أن يأتي بدور من الأدوار كان فيه الإسلام مغايراً للمدنية والتقدم؟! إن محمداً (ﷺ) هو الذي استطاع في فترة وجيزة أن يكتسح دولتين من أعظم دول العالم، وأن يقلب التاريخ رأساً على عقب، وأن يكبح جماح أمة اتخذت الصحراء المحرقة سكناً لها... فمن الذي يشك أن القوة الخارقة للعادة التي استطاع بها محمد أن يقهر خصومه هي من عند الله(٣).

---

(١) أوربا والإسلام، د/ عبد الحليم محمود صـ٦٩.

(٢) الدعوة الإسلامية، توماس أرنولد، ترجمة د/ حسن إبراهيم وآخرون صـ٣٨٥.

(٣) ثناء الغربيين على سيد المرسلين، السيد محمد بن علوي العيدروس صـ١٥.

هذه هي قوة "العقيدة الإسلامية" التي تحدث عنها هيدلي، وول ديورانت، وغيرها، وما زالت تلك القوة موجودة، وستبقى إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، لأنها قوة ذاتية نابعة من مصدرها الأصلي الذي لا يشوبه تحريف ولا تبديل، إنه الوحي المعصوم.

الإسلام بين الافتراء والإنصاف

تعتبر هذه المسألة من المسائل التي لاقت اهتماماً كبيراً في جوانب متعددة، وبمناهج مختلفة، ولأغراض مختلفة أيضاً من كثير من الباحثين.

وما يهمنا الآن إشارة بسيطة ومختصرة لبيان المقصود من هذا البحث، وإتماماً للفائدة المرجوة منه إن شاء الله تعالى.

فقد ذكرت في الصفحات السابقة أن عقيدة الإسلام تتميز عن غيرها بصحة مصدرها، وعقلانية جوهرها، ونزاهتها من التحريف والتبديل... الخ.

ومع ذلك فقد اختلف الغربيون حول عقيدتنا اختلافاً كبيراً، فمنهم من كَذَّب وافترى وخالف الحقائق، وقَطَر سُماً على الإسلام وأهله.

ومنهم من صدَّق وأنصف وتكلم بحيادية وموضوعية ونزاهة، ولكن هؤلاء قليلون، وتأثيرهم قليل، بالنسبة للفريق الأول، فعمومهم على الكذب والافتراء، فضلاً عن معاونة أجهزة الدول الغربية لهم من سياسيين، وإعلاميين، ورجال دين.... وغيرهم، وزيادة على ذلك: أموال طائلة تنفق من قِبل الغرب لتشويه صورة الإسلام والمسلمين، ليصدوا الناس عن دين الله تعالى، حتى باتت صورة الإسلام في المغرب مشوهة المعالم، مطموسة الأركان والبنيان، لا يعرفون عن الإسلام سوى أنه دين أرضي خرج من الصحراء يتصف أصحابه بالتخلف والهمجية والعنف ونبذ الآخر!

ولعل أحداث الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة ـ مع أن الغالب أن أصابع الاتهام كانت موجهة للمسلمين ـ كانت فتحاً لباب التعرف على الإسلام إلى حدٍ ما في دول الغرب، وخاصة الولايات المتحدة.

((فقد زاد الطلب على المحاضرات التي تشرح الإسلام، وعلى عقد حوارات بين الإسلام وشتى طوائف الكنائس المسيحية، بل أصبحت المفردات والعبادات والأركان الإسلامية جزءًا من الثقافة العامة، تتبارى برامج الإذاعة والتليفزيون، بل والصحف والمجلات في تغطيتها وإجراء المناقشات الجماهيرية عنها، وقد أجمعت الإحصاءات أن مبيعات الكتب التي تبحث في أمور الإسلام وكذلك الترجمات الإنجليزية للقرآن وتفسيره قد وصلت إلى أرقام قياسية، بل ونفدت النسخ في أكثر المكتبات في المدن الأمريكية الكبرى))[1].

ويبدو أنه ومنذ ذلك الحين بدأ الناس يقرأون عن الإسلام، ويستفسرون عن عقيدته وشريعته، مما أدى بالكثير منهم إلى اعتناق الإسلام والتصديق به، بل ودعوة الآخرين من بني جلدتهم إليهم، فقد كانت تلك الحادثة يُقصد بها تشويه صورة الإسلام، ولكن أتت الرياح بما لا تشتهي السفن!

ولكن ـ وعلى كل حال ـ فإن تشويه صورة الإسلام لدى المجتمعات الغربية قديماً وحديثاً يسير على خطى ثابتة ومدروسة ومدفوعة الأجر، حتى كأنه أصبح "منهج حياة"!

ولعل ذلك يؤيد وجهة النظر القائلة: أنهم يعترفون ضمناً أن "العقيدة الإسلامية " هي العقيدة الوحيدة على ظهر الأرض القادرة على جذب الناس إليها من كل فج وصوب، وما سواها من عقائد لا يساوي ورقة نقد زائفة، وأن الخوف الحقيقي والواقعي هو من انتشار تلك العقيدة، فلذلك تراهم لا يهاجمون إلا الإسلام ولا يشوهون إلا إياه!

يقول الدكتور موريس بوكاي: فأمام هذه الموجة المادية وغزو الإلحاد للغرب يظهر عجز المسيحية واليهودية عن الصمود...، إن المادي الملحد لا يرى في المسيحية الكلاسيكية إلا نظاماً ابتناه البشر لإرساء سلطة لأقلية قليلة على بشر مثلها،

(١) الإسلام في أمريكا، د/ حسان حتحوت وآخرون صـ٩١.

ولن يجد في الكتب المقدسة المسيحية لغة تتشابه مع لغته ولو من بعيد، فهذه الكتب تحتوى على أمور كثيرة لا تتفق مع العلم، وعلى تناقضات وأمور غير معقولة... وإذا ما حدثوه عن الإسلام فإنه يبتسم بغرور لا يماثله إلا جهله بالموضوع، وكمعظم المثقفين الغربيين، فإنه يملك عن الإسلام كماً هائلاً من الأفكار الخاطئة!... إلى أي حد شوه تاريخ الإسلام وعقيدته وأهدافه في بلادنا!(١).

ويقول الأستاذ أنور الجندي: يقول أحد الباحثين إن الهدف السياسي الراهن من الكتابة عن الإسلام في الغرب هو سد الأبواب الفكرية أولاً على الإنسان الغربي نفسه، حتى لا يرى في ظهور الإسلام على حقيقته ملجأ له من واقع التمزق الفكري والخلقي والاجتماعي والعقدي، إنهم يطمعون في عرض صورة مشوهة عن الإسلام للإنسان الغربي حتى يخدعوا الغربيين المتطلعين إلى الإسلام، ومن هنا كانت محاولاتهم للحصول على كتابات من المسلمين عن أن الإسلام لا يختلف عن المسيحية إلا في مسائل فرعية، واعتمادهم في تقديم المسلمين للغرب عن طريق الكتابات الزائفة التي كتبها المستشرقون اليهود والنصارى التابعون للكنيسة من ناحية، ولوزارات الاستعمار من ناحية...(٢).

لقد كان الإعلام الغربي ولا زال ـ بكل وسائله، المطبوعة والمسموعة والمرئية ـ يشكل عائقاً رئيسياً في وجه الحقيقة عن الإسلام والمسلمين، فقد عكف دائماً على تشويه صورة المسلمين وعقيدتهم؛ ليحقق بذلك أهدافاً خبيثة أهمها: عدم شيوع العقيدة الإسلامية، وصنع الجدار العازل بين الغربيين وبين الإسلام.

((وقد أظهر إعلام الغرب صورة "الإسلام والمسلمين" على النحو التالي:

– إظهار العرب والمسلمين في صورة المتناقضين دينيًّا مع الغربيين، فهم غير مسيحيين ومتطرفون يناهضون الصليبيين.

---

(١) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، د/ موريس بوكاي صـ١٤٩ بتصرف يسير.

(٢) ترشيد الفكر الإسلامي، أنور الجندي صـ٩٢.

– إظهار العرب المسلمين بأنهم مصدر المتاعب والإرهاب والعنف في شتى أنحاء العالم.

– إظهار العرب والمسلمين بأنهم السبب المفاجئ في الأزمة الاقتصادية التي تسود العالم نتيجة لتحكمهم في أسعار النفط))[1].

تلك الصورة القائمة التي حرصت المؤسسات الإعلامية الغربية على تصديرها لشعوبهم خلال الفترات السابقة، وحتى الآن.

الاستشراق والافتراء على الإسلام

ثمة شيء آخر مهم نريد أن نشير إليه في تلك السطور القليلة عن " الافتراء على الإسلام "، وهو "**الاستشراق**"،فقد كان ولا يزال أهم أدوات محاربة الإسلام والافتراء عليه على الإطلاق، فقد قام المستشرقون بأعدادهم وأدواتهم التي لا تحصى بالكذب والافتراء وتشويه العقيدة الإسلامية منذ عدة قرون وحتى الآن.

((فيكاد يكون هناك في كل جامعة أوروبية أو أمريكية معهد خاص للدراسات الإسلامية والعربية، بل يوجد في بعض الجامعات أكثر من معهد للاستشراق، ويرأس كل معهد أستاذ، ويساعده بعض المحاضرين والمساعدين، وتقوم هذه المعاهد بمهمة التدريس الجامعي، وتعليم العربية، وتخريج الدارسين للماجستير والدكتوراه...))[2].

وقد ذكر البعض أن تلك المعاهد والمراكز المختصة بالدراسات الإسلامية والشرقية تربو على السبعمائة!، ولك أن تتخيل أعداد الأساتذة والمتخصصين بتلك المعاهد، فضلاً عن الدارسين من طلاب تلك المراحل.

في الغالب يكون الهدف الأسمى لهؤلاء جميعاً: هو الطعن في العقيدة الإسلامية، وتشويه صورة الإسلام والمسلمين، ومد وسائل الإعلام المختلفة والمؤسسات السياسية والعسكرية بكافة المعلومات عن الشرق والإسلام والمسلمين.

---

(١) صورة العالم الإسلامي في الإذاعات الأجنبية الموجهة باللغة العربية صـ٢٨، نقلاً عن موقف المستشرقين من الصحوة الإسلامية، مجدي محمد فتح الباب صـ٢٩٦.

(٢) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د/ محمود حمدي زقزوق صـ٦١.

يقول الدكتور مصطفى السباعي: لا نحتاج إلى جهد لنتعرف على الدافع للاستشراق عند الغربيين وهو الدافع الديني، فقد بدأه بالرهبان واستمر حتى عصرنا الحالي، وهؤلاء كان يهمهم أن يطعنوا في الإسلام، ويشوهوا محاسنه، ويحرفوا حقائقه، ليثبتوا لجماهيرهم أن الإسلام دين لا يستحق الانتشار، وأن المسلمين قوم همج لصوص، وسفاكو دماء، يحثهم دينهم على الملذات الجسدية، ويبعدهم عن كل سمو روحي وخلقي.. ثم اشتدت حاجتهم إلى هذا الهجوم في العصر الحاضر بعد أن زعزعت الحضارة الحديثة عقيدة الغربيين، وأخذت تشككهم بكل التعاليم التي كانوا يتلقونها عن رجال الدين، فلم يجدوا خيراً من تشديد الهجوم على الإسلام لصرف أنظار الغربيين عن نقد ما عندهم من عقيدة وكتب مقدسة [١].

((ومنهم أيضاً: أ. ج. أربري، وهو انجليزي متعصب ضد الإسلام، والفريد هيوم مثله أيضاً، وجب أكبر مستشرقي انجلترا المعاصرين، وجون ماينارد أمريكي متعصب ضد الإسلام، وزويمر مستشرق مبشر، وفون جرونبادم يهودي ألماني، وماكدونال أمريكي متعصب ضد الإسلام))[٢].

فهؤلاء وأمثالهم جعلوا من البيئة الغربية كياناً مفعماً بكره الإسلام والمسلمين، بل ويكنون كل ازدراء وانتقاص لكل ما يمس الإسلام بصلة.

يقول المستشرق الأيرلندي "ديلاس أوليري" في مقدمة كتابه "الفكر العربي ومكانه في التاريخ": والحق أن هذه الثقافة الإسلامية في أساسها وفي جوهرها جزء من المادة الهيلينية الرومانية، بل إنه حتى علم التوحيد الإسلامي قد تحدد وتطور بواسطة منابع هيلينية...[٣].

---

(١) الاستشراق والمستشرقون، مالهم وما عليهم، د/ مصطفى السباعي صـ١٨، وانظر: دوافع الاستشراق وموازين البحث عند المستشرقين بين الماضي والحاضر، د/ ناصر السيد إسماعيل صـ٢٦.

(٢) السابق صـ٣٦ وما بعدها.

(٣) الفكر العربي ومكانته في التاريخ، ديلاس أوليري، ترجمة د/ تمام حسان صـ٢٠.

ويقول في خاتمته: لقد تتبعنا حتى الآن نقل نوع خاص من الثقافة الهلينية بطريق الكنيسة السريانية، والزرادشتيين الفرس، والوثنيين الحرانيين إلى المجتمع الإسلامي، حيث لحقه بعض التعديل بفضل قوم كان المعلمون المسلمون الرسميون يعتبرونهم ملحدين(١).

فهذا كتاب من كتبهم، اهتم صاحبه بدراسة الفكر الإسلامي، حيث جعل منه مزيجاً مستفاداً من عدة فلسفات زوراً وبهتاناً، حتى تجرأ على أشرف علم في تاريخ البشرية "علم التوحيد"، فجعله كذلك مُحَدداً ومُطَوراً بواسطة الفكر الهليني! لقد كذب من أول كلمة إلى آخر كلمة! حتى عنوان الكتاب، نجده عَدَلَ عن المسمى الحقيقي "الفكر الإسلامي" إلى مسمى "الفكر العربي" ليبين أن ثمة فكراً وثقافة منسوبة للغتها لا لدينها!!

كتاب آخر من تأليف "جان سوفاجيه" و "كلود كاين" بعنوان (مصادر دراسة التاريخ الإسلامي) جاء في مقدمته: ((وفضلاً عن كونه ـ الإسلام ـ حضارة من حضارات الماضي، فإنه لا يزال يجتذب جديداً من الأتباع...))(٢).

ففي صدارة كتاب مثل هذا (حيث يهتم به الغرب كثيراً لكونه مصدراً أساسياً للتاريخ الإسلامي، حيث ترجم من الفرنسية للإنجليزية، وقدم له "نون جرونباوم" الأمريكي الشهير بنفسه) نجد مؤلفيه يبتدئان حديثهما بكذبة كبرى (أن الإسلام كان حضارة من حضارات الماضي)!! وما ذاك إلا للانتقاص من مكانة الإسلام وقدره، وقدر حضارته!

ثم يقولان في الفصل الخاص بسيدنا محمد (ﷺ) بعد أن عنوناه بـ "محمد الإنسان" وليس "النبي محمد (ﷺ)": لا سبيل لاعتماد سيرة موثوق بها لحياته،

(١) الفكر العربي ومكانته في التاريخ، ديلاس أوليري، ترجمة د/ تمام حسان صـ٢٣٣.

(٢) مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، جان سوفاجين، كلود كاين، ترجمة د/ عبد الستار حلوجي، د/ عبد الوهاب علوب صـ٢٣.

ورسالته تتجسد في القرآن، ولكن ليس من المتوقع منه أن يقدم لنا معلومات عن حياته أو عن دوره كقائد دولة، وكل ما لدينا من معلومات عن جوانب شخصيته مصدره الحديث النبوي الذي سبق لنا أن أشرنا إلى محدوديته من الناحية التاريخية، ولا يستطيع النقد التاريخي أن يحول هذه الأحاديث إلى مصدر يعتمد عليه للمعلومات(١).

فهل هذا كلام يستحق الرد، فضلاً عن مناقشته، يكفي في الرد جملة واحدة: أن سنة نبينا الفكر العربي ومكانته في التاريخ، ديلاس أوليري، ترجمة د/ تمام حسان وصلت إلينا مروية عنه الفكر العربي ومكانته في التاريخ، ديلاس أوليري، ترجمة د/ تمام حسان بواسطة رجال ابتكروا مناهج للتثبت من تلك الأحاديث لم يعرف تاريخ البشرية لها مثالاً على الإطلاق، بل لقد ابتكروا علماً يسمى "علم الرجال" للتثبت من الرواة أنفسهم!!

ثم إنه قد ثبتت حياة سيدنا محمد الفكر العربي ومكانته في التاريخ، ديلاس أوليري، ترجمة د/ تمام حسان بشيء من التفصيل والتوضيح والبيان الشافي، بحيث لا تجد مثله لشخصية من الشخصيات، فقد اعتنى الصحابة رضوان الله عليهم بشرح حياة النبي الفكر العربي ومكانته في التاريخ، ديلاس أوليري، ترجمة د/ تمام حسان من جميع نواحيها.

ثم يأتي أناس كهؤلاء في كتاب كهذا يعتبرونه من أهم مراجعهم، فيتحدثون بمثل هذا الكذب والافتراء!، ولنا أن نتخيل مقدار الكذب الذي جاء على ألسنة جولد تسيهر، وماسينون، وألفريد هيوم، وماكدونال، وغيرهم ممن ملئوا الأرض كذباً وافتراءً على الإسلام وأهله!! في الحقيقة أن هؤلاء وأمثالهم ـ وبمعاونة وسائل الإعلام ـ قد كونوا حجاباً عظيماً بين عقيدة الإسلام وتاريخه وحضارته العظيمة، وبين مجتمعاتهم الغربية.

(١) مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، جان سوفاجين، كلود كاين، ترجمة د/ عبد الستار حلوجي، د/ عبد الوهاب علوب صـ١٩٥.

المنصفون من الغرب للعقيدة الإسلامية

ولكن ثمة فريق آخر من الغربيين أنفسهم يطلبون الحق ويسعون إليه، فوفقهم الله تعالى للحق وأجراه على ألسنتهم، ولكنهم ـ وكما ذكرت سابقاً ـ قليلون، ولكن عهدي بالله تعالى أن يبارك في هؤلاء القلة، فقد اعتنق الإسلام على أيديهم الكثير من أبناء الغرب، ولا يزالون!

فمن هؤلاء ((بوركهلرت، كرنكوف، زونستين، سينيسر، رنيه، ميشو بيللر، مارما درك، فيلبي، ليوبولد قايس، جرمانوس، والأحد عشر ألمانياً، والأمريكان: خديجة دلتك، وليورس "محمد الأزهري"، والسويسريان: جميلة زوسترنج، وألبرت كادلر، والبريطانيان: جونس وهارد))[1].

وغيرهم كذلك مثل ((بوزورث سمث، ولينز، أنسويروكسي، أرنست بارنت الألماني، أرثركين الأمريكي "علي عمر كريم"، هوجين لويس، جون سنت "محمد جون"، بورمان "أحمد عبد الله نورمان"، كريستيان شرفيس....))[2].

فهؤلاء وغيرهم كثيرون، "وحتى اليوم" ممن لا يستطيعون معادات الحق، فينصاعون له مستسلمين لله ورسوله، شاهدين على أنفسهم بالإسلام.

فهؤلاء الذين أسلموا، وغيرهم من المنصفين الغربيين الذي لم يعلنوا إسلامهم، تأتي على ألسنتهم عبارات الحق والصدق عن الإسلام وعقيدته وشريعته ورسوله (ﷺ)، ومن المؤكد أن تلك العبارات والتصريحات مفيدة جداً في المجتمعات الغربية، وخاصة في الفترات الأخيرة التي بدأ الغربيون أنفسهم يبحثون عن الحقيقة وعن دين الحق بكل حرية وتفرد في اتخاذ القرار.

---

(١) المستشرقون، نجيب العقيقي جـ٣/صـ٦٢١.

(٢) السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال الجبري صـ٤٨.

وإن شاء الله سوف يُتسع الخرق على الراتق" في تلك المرحلة الحالية المسماة "ما بعد العلمانية"، حيث لا يستطيع كَذَبَة المستشرقين وأمثالهم البقاء على تلك الحجب التي بنوها بين الإسلام والغرب في الفترات السابقة، حيث يتم اختراقها الآن، ويجد الإسلام كل يوم له أرض جديدة، وأتباع جدد، ما كان يجول بخاطر أحدهم يوماً أنه سيعرف شيئاً عن الإسلام، فضلاً عن اعتناقه!

تقول المستشرقة الألمانية "آنا ماري شيمل": ((أنها غير قلقة على مستقبل العالم الإسلامي في القرن الجديد لأنه يؤمن بعقيدة راسخة قادرة على إيجاد حلول جذرية للعديد من المشكلات التي تهدد عالمنا المعاصر، وكل ما هو مطلوب من المسلمين هو الفهم الصحيح لهذا الدين العظيم، وتطبيقه على حياتهم في معاملتهم مع الآخرين))[١].

ويقول "برناردشو": ((إن الإسلام دين يستحق كل احترام والإجلال، لأنه أقوى دين على هضم المدنيات، وهو خالد خلود الأبد، وإني أرى كثيراً من بني قومي من العلماء قد دخلوا هذا الدين على بينة من أمرهم، وفي المستقبل سيجد هذا الدين مجاله الفسيح في كافة أنحاء أوروبا، لقد درست سيرة محمد (ﷺ) فوجدته بعيداً عن مخاصمة المسيح، ويمكن بحق أن نعتبر محمداً منقذاً للإنسانية، وأعتقد أن رجلاً مثله لو حكم العالم بأسره، لجلب للعالم السلام والسعادة، قد برهن الإسلام من ساعته الأولى أنه دين الأجناس جميعاً، إذ ضم سلمان الفارسي، وبلال الحبشي، وصهيب الرومي، كما اعتنقه مجموعات من النصارى واليهود وعبدة الأوثان، وانصهر الجميع في بوتقة واحدة دون فرق على الإطلاق، ولم يحس أحد منهم أنه غريب عن هذا الدين، وبعد فترة اتصل هذا الدين بأجناس متعددة بينها الأسود والأصفر والأبيض، وكانوا جميعاً في رحابه متساويين سعداء))[٢].

---

(١) ثناء الغربيين على سيد المرسلين، السيد محمد بن علوي العيدروس صـ١٦.

(٢) السابق صـ٤١.

فلا شك أن دين الإسلام "دين عالمي"، فجاءت عقيدته لتتسع جميع العقائد السابقة، وجاءت شريعته منظمة ومستوعبة لجميع الأجناس والأعراق على ظهر الأرض، فلا عجب أن ينصهر الجميع في تلك المنظومة العالمية تحت راية التوحيد، متساوون جميعاً، متمسكون بكتاب ربهم بنبيهم، سعداء بنعمة الله تعالى الكبرى "نعمة الإسلام".

يقول "ميسيورينيه" الرسام الفرنسي الذي أسلم وسمى نفسه "صلاح الدين":

((إن العقيدة الإسلامية لا تقف عثرة في سبيل الفكر، وأن الإسلام صالح منذ نشأته لجميع الشعوب والأجناس، وهو كما يبهج الرجل العلمي في لندن مثلاً، فإنه يأخذ بلب الفيلسوف الروماني، كما يتقبله الشرقي صاحب الخيال الشعري، كما يأخذ بمجامع الفكر الغربي الذي عكف على الإبداع، فكم من فيلسوف وقسيس ومصور وشاعر وطبيب وصيدلي ومحام وسياسي في الشرق والغرب قرأوا عن الإسلام، فبهرهم واستحوذ عليهم تناسقه مع الفطرة، وجذبتهم إليه عقائده وعباداته، فآمنوا به راغبين راسخين، لا رهبة، بل اقتناعاً عميقاً وحباً، فهو الرحيق السائغ، والمنطق السليم، والمنهج السليم))[1].

يقول "جارودي": لقد جاءوا ـ أي المسلمين ـ بنظام اجتماعي أرقى بكثير من النظام القائم، وسرعان ما ظهروا في مظهر المحررين، وذلك بتخليص عبيد الأرض من وصاية الملوك، ثم بعدم الاستيلاء على الأرض، فالقرآن يحرم ذلك مكتفين بالخراج[2].

فلم تكن رسالة الإسلام أبداً هي حمل الناس بالإكراه على اعتناقه، والسعي وراء السيطرة على البلاد والعباد، ونهب الثروات، وبسط الأيدي على الأراضي والممتلكات، ونفوذ السلطة والسيطرة على باقي الأمم والشعوب.

---

(١) ثناء الغربيين على سيد المرسلين، السيد محمد بن علوي العيدروس صـ٤٤.

(٢) نحن وحضارة الغرب، أنور الجندي صـ٣٧.

بل كانت رسالته: هداية الناس إلى دين الله بالاختيار، ونشر السماحة والعدل والحرية والمساواة، ونصرة الضعيف، وإغاثة الملهوف، وتحقيق السلام بين أهل الأرض بالإسلام.

((ولذلك لما قدمت الحملة الصليبية الثالثة، عامل صلاح الدين الملوك على نحو رائع أثار دهشتهم، فقد أرسل الأطباء والفاكهة والثلج لخصمه ملك بريطانيا، وكان مثلاً عالياً في الوفاء بالوعد والاستمساك بالعهد، فلما عاد الصليبيون لم يستطيعوا أن يمسكوا أنفسهم عن أن يكشفوا الحقيقة، وأن يقولوا ـ وهم مهددون بالموت من خصوم الإسلام ـ: إن الإسلام دين العدل والحق والحرية، وأن المسلمين كرماء متسامحون، وأنهم عاملوهم أروع معاملة، وأن محمداً نبي من السماء صادق عادل))[١].

ويقول كارلايل الكاتب الإنجليزي الكبير:

((من العار أن يصغي أي إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين: إن دين الإسلام كذب، وأن محمداً لم يكن على حق،... لقد آن لنا أن نحارب هذه الادعاءات السخيفة المخجلة، فالرسالة التيدعا إليها هذا النبي ظلت سراجاً منيراً أربعة عشر قرناً من الزمان لملايين كثيرة من الناس، فهل تكون أكذوبة، أو خديعة؟... فمن الخطأ أن نعد محمداً رجلاً كاذباً متصنعاً، وما الرسالة التي أداها إلا الحق والصدق، وما كلمته إلا صوت حق صادق، وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء))[٢].

وإذا ذهبنا نتصفح مثل تلك الشهادات ما وسعنا ذلك البحث، فهناك غير ذلك الكثير والكثير من شهادات المنصفين من الغربيين أنفسهم – من أسلم منهم ومن لم يسلم – عن الإسلام، وعقيدته، وشريعته، وأخلاقه، وفضائله، وعن المسلمين وتاريخهم المشرف، وحضارتهم العظيمة الرائعة.

---

(١) الإسلام في أربعة عشر قرناً، أنور الجندي صـ٣٣.

(٢) أوربا والإسلام، د/ عبد الحليم محمود صـ٦٠.

تلك هي الحقيقة التي لابد أن يعترف بها كل صاحب عقل، وكل من يتمتع بالحيدة والنزاهة والنصفة، وكل من عرف عن الإسلام معرفة صحيحة غير مشوهة ولا مبتورة.

فلاسفة (ما بعد العلمانية) والإسلام

ويجدر بنا قبل انتهاء هذا الحديث عن شهادات الغربين على الإسلام، أن نبين آراء طائفة مخصوصة منهم: إنهم طائفة المنظرين لـ "ما بعد العلمانية".

ولا يخفى أن آراء هؤلاء ـ خاصة ـ لها أهميتها الكبيرة في تحديد ملامح مرحلة "ما بعد العلمانية" الحالية، فضلاً عن التوقعات للأطر المستقبلية أيضاً.

يورغن هابرماس

يقول "هابرماس": أما أكثر أشكال الامتداد الديني حركية، فهو الشبكات اللامركزية التي تدعو إلى الإسلام والإنجيليون، تتميز هذه الشبكات بشكل من التدين يثير النشوة، يلهمه قادة أصحاب كاريزما عالية(١).

ويقول أيضاً ـ كما ذكرت سابقاً ـ المسلمون الذين يقطنون بجانبنا يفرضون على المواطنين المسيحيين أن يواجهوا ممارسة لعقيدة منافسة لعقيدتهم، وكما يقدمون للمواطنين العلمانيين إدراكاً أفضل لظاهرة وجود عام للدين...

وقد بينت أيضاً أن هابرماس تحدث عن المسلمين بوصفهم "مهاجرين" وأكد وجود علاقة بين نشوء الوعي "ما بعد العلماني" والتدفق الجديد للمهاجرين.

وأيضاً: عندما تحدث عن "النهضة الإسلامية العالمية" تبين أن تلك النهضة أثبتت قدرة الدين على فهم مختلف الصراعات الأيديولوجية التي تحدث في عالمنا المعاصر بشكل دقيق(*).

---

(١) المجتمع ما بعد العلماني، يورغن هابرماس، ترجمة د/ ريم اليوسف، فصلية الاستغراب، عدد ٢، صـ٥٠.

(*) راجع الفصل الثاني من هذا البحث، في إطار الحديث عن "هابرماس".

رودني ستارك

يقول "**رودني ستارك**": لا يحتاج المراقب صاحب أدنى معرفة بخلفية الدول الإسلامية إلى بيانات كهذه ليرى الحيوية المتفجرة التي يتمتع بها الإسلام في زمننا المعاصر، وكي يدرك تناسب هذه الحيوية المباشرة مع التحديث والحداثة في الدول الإسلامية(١).

تارين مونت ألفرني

يقول "ألفرني" في خضم حديثه عن " اللائيكية الفرنسية " وتأثيرها بمستجدات الفترة الحالية: .... عنصرين جديدين سوف يسهمان حتمًا في تكييف لائكية بداية القرن العشرين مع سياق قد تغير كثيراً: أقصد حضور دين جديد "الإسلام" الذي أصبح الدين الثاني في فرنسا، وهو الأمر الذي كان غير متصوَّر في زمن تأسيس الجمهورية، كما أقصد بالإضافة إلى ذلك: الانفجار الحقيقي للحريات العامة...(٢).

كريستينا شتوكل

تقول "**شتوكل**": أعتقد أن الحديث عن "بعد العلماني" منطقي بقدر ما نأخذ في الحسبان موضوع التعددية، ووجود الأديان الأخرى – الإسلام، والأرثوذوكسية، واليهودية، وغيرها، بهذا المعنى: أوروبا اليوم تتغير فعلاً، وبسبب الهجرة هنالك حضور كبير للإسلام(٣).

---

(١) فلترقدي بسلام أيتها العلمنة، رودني ستارك، ترجمة/ رامي طوقان، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٦٨.

(٢) إعادة النظر في مبدأ اللائيكية الفرنسية، تارين مونت ألفرني، ترجمة/ جمال عمار، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٢٨١.

(٣) محاولة تعريف "ما بعد العلماني"، كريستينا شتوكل، ترجمة/ طارق عسيلي، فصلية الاستغراب، عدد ٨، صـ٣٥٣.

خوزيه كازانوفا

يبين "كازانوفا" من خلال عرض سريع لظواهر الروحانية والتدين، مدى انتشار الإسلام في أمريكا فيقول: ((انتشار العبادات والسجالات التي أحاطت بها، والتبشير الإنجيلي التلفزيوني بكل أشكاله الاستعراضية، والانتحار الجماعي لأتباع معبد الشعب في جونزتاون، وانتشار البروتستانتية الإنجيلية في أمريكا اللاتينية، والانتشار السريع للإسلام في الولايات المتحدة الأمريكية، والجدية التي تعاطى بها الكثيرون في المجتمعات العلمانية الحديثة...))[1].

بيتر بيرغر

يبين بيرغر من خلال مناقشته لـ "الحركات الدينية المزدهرة في العالم والفروقات بينها"، أن ثمة حركتين كبيرتين هما الأكثر انتشاراً وفاعلية في العالم، أولهما الإسلام.

يقول "بيرغر": تحليل الأثر الاجتماعي والسياسي للصحوات الدينية المختلفة يجب أن يأخذ في اعتباره الفروقات في ما بينها، تظهر هذه الحدود بوضوح إذا نظرنا إلى النهضتين الدينيتين الأكثر ديناميكية في العالم اليوم: الصحوة الإسلامية، والصحوة الإنجيلية...

فالصحوة الإسلامية، وبسبب تعقيداتها السياسية الواضحة والمباشرة، معروفة بشكل أكبر، ولكن سيكون من الخطأ الجسيم أن نرى هذه الصحوة من خلال العدسة السياسية فقط، ذلك بأنها تتألف من عودة التزامات ذات طبيعة دينية مؤكدة ومثيرة للإعجاب، وتصنع مدىً جغرافيّاً هائلاً، في حين لا يزال عدد المنتمين إليها يزداد

(١) الأديان العامة في العالم الحديث، خوزيه كازانوفا، ترجمة / قسم اللغات الحية والترجمة، جامعة البلمند صـ١٥.

يوماً بعد يوم ـ خاصة في أفريقيا جنوب الصحراء الكبرى ـ حيث تجد نفسها في منافسة صريحة مع المسيحية(١).

وغير هؤلاء كثيرون ممن أشادوا بحيوية الإسلام، وحضوره النشط في تلك الأوساط، ولكن يكفينا ما ذكرت لكونه كافياً في الاستدلال، ولئلا يطول بنا المقام.

وربما تكون تلك التصريحات السابقة من قِبل منظري "ما بعد العلمانية" هي الأكثر أهمية في مجريات هذا النوع من البحوث، والذي يُقصد به – الإشارة إلى تتابع الأحداث في مرحلة زمنية معينة.

ويجب أن يؤخذ في الاعتبار، أن التصريحات التي تُكَوَّن في مجملها اعترافاً واضحاً بقوة الإسلام الذاتية، ومدى قدرته على الانتشار بين أوساط هي بالأصل "علمانية مسيحية "،.... إنما جاء على ألسنة فلاسفة ومتخصصين في علم الاجتماع الديني، وباحثين لمرحلة "ما بعد العلمانية"، فضلاً عن كونهم يدينون بالمسيحية!!

ولذلك نجد أن منهم من جعل المسيحية ـ خاصة الإنجيلية ـ منافسة للإسلام، ولكن ـ وإحقاقاً للحق ـ جعلها في المرتبة الثانية بعد ذكر الإسلام أولاً، فضلاً عن كونهم يتحدثون عنها ـ علماً بأنهم من أبنائها ـ بطريقة أقل حماسة من الحديث عن الإسلام.

(١) زوال العلمنة عن العالم، بيتر بيرغر، ترجمة / رامي طوقان، فصلية الاستغراب، عدد ٢، صـ٢٥٧.

الخاتمة

وتشتمل على:

- **أهم نتائج البحث.**
- **التوصيات والمقترحات.**
- **مراجع البحث.**

الخاتمة

الحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات، حمداً كثيراً طيباً طاهراً مباركاً فيه، حمداً يليق بجلاله وكماله وعزته وكبريائه، سبحانه لا نحصي ثناءً عليه، هو كما أثنى على نفسه، وصلاةً وسلاماً على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً.

وبعد:

فقد انتهيت بفضل الله تعالى من هذا البحث عن ذلك الموضوع المهم، (بل الأكثر أهمية في عصرنا الحالي)، والمتمثل في بيان المرحلة الحالية التي يمر بها العالم الغربي، والتي تبلورت سماتها الأساسية في عقدين أو ثلاثة عقود، هي الأخيرة من عُمر المجتمعات، والتي بدأ التنظير والتأريخ لها منذ أقل من عِقد واحد من الزمان.

تلك الحالة أو المرحلة التي دار البحث حولها، والتي تتمثل في موجة تدين كبيرة تجتاح الغرب في الفترة الزمنية المشار إليها، ورغبة شبه جماعية في التخلي عن "مبادئ العلمنة" المفعمة بالمادية والأنانية والصناعة والتكنولوجيا... الخ، مع جحود مطالب الروح والنفس، وكل ما يخص الإنسان كإنسان!!

ففي الآونة الأخيرة لم يعد الإنسان الغربي يستطيع أن يتحمل نتائج " العلمانية" المجحفة بحقوقه كإنسان له قلب وروح ونفس تشتاق دائماً لمعرفة خالقها ومدبر أمرها، وتشتاق أيضاً لمعرفة أسباب السعادة، ومعرفة الحقيقة وراء هذا الكون وعجائبه ومفرداته اللانهائية!!

فالعلمانية حققت للمجتمعات الغربية تفوقاً وازدهاراً كبيراً في الجانب المادي، ولكن ثمة جوانب أخرى "هي الأهم"، أغفلتها تماماً ـ بقصد أو بدون قصد ـ حتى أصبح الغربيون يعانون أشد المعاناة من مشكلات عديدة لم يجدوا لها حلولاً في ظل مجتمع

معلمن، ونصرانية فقدت كل قواها وجاذبيتها وقناعاتها، وإلحاد مظلم قاتل، يكاد ينقض عرى تلك المجتمعات، بل ويقتلعها من جذورها.

وباتت تلك المجتمعات مدركة أن لا ملجأ من الله تعالى إلا إليه، وأن ثمة مراجعات وتغيرات جذرية يجب أن تحدث وبسرعة، حتى يمكن إنقاذ هذا الإنسان الذي أوشك على الهلاك من داخله، وإن كان في الظاهر هو الأقوى والأكثر سلطة ونفوذاً في هذا العالم!!

فتعالت الأصوات والنداءات من كثيرين من الفلاسفة والمفكرين والعلماء، أنه لابد من الرجوع للدين، وأن الإيمان بالله تعالى هو المنقذ من تلك الظلمات التي يتخبط فيها الجميع.

ومن هنا ظهرت الأبحاث التي تتناول تلك الظاهرة مرحلة "ما بعد العلمانية" بالوصف والتحليل والتعليل، بل والتنبؤ بالمستقبل القريب والبعيد، وسرد التوقعات المختلفة بناءً على الوضع الحالي.

وتوالت الأبحاث والمقالات، واللقاءات، والندوات، والمؤتمرات الدولية حول تلك القضية التي شغلت الكثير من مفكري الغرب وفلاسفتهم، وقد فصلت القول في ذلك خلال صفحات هذا البحث.

ويجدر بنا الآن الإشارة لأهم نتائج هذه الدراسة كالآتي:

أهم نتائج البحث

* اجتمعت كلمة الكثير من مفكري الغرب وفلاسفتهم على أن المجتمعات الغربية تعيش الآن مرحلة جديدة مغايرة لعصور العلمنة السابقة، اصطلح أغلبهم على تسميتها: "**ما بعد العلمانية**"، وأن هذا الأمر أصبح واقعاً محتوماً لا سبيل لإنكاره بحال من الأحوال.

*** من أهم أسباب نشأة وبزوغ مرحلة "ما بعد العلمانية":**

١) أن الدين مركوز في النفوس، فالنفس بأصل فطرتها تميل إلى التدين دائماً حقيقة لا مراء فيها.

٢) أن العلم دائماً يدعو إلى التدين والإيمان بالخالق، وخاصة "نتائج العلوم الحديثة".

٣) هزيمة العلمانية، وإخفاقها في تلبية المطالب المتكاملة للإنسان.

٤) انهيار الجدار الأخلاقي للشعوب والحكومات الغربية، والنتائج الوخيمة المترتبة على ذلك، من القلق، والتوتر، والأمراض النفسية، والأمراض الاجتماعية، والانتحار... الخ

٥) كثرة المذاهب والفلسفات والآراء، مما زاد الغربيين حيرة إلى حيرتهم، وقلقاً إلى قلقهم.

* تبين المعطيات الحديثة أن المراجع التأسيسية لمصطلح "ما بعد العلمانية" تنحصر في أعمال بحثية صدرت منذ عام ٢٠١٠م تقريباً، وهذه الأعمال هي حصيلة مؤتمرات خصصت لتظهير هذه القضية.

* يرجع مصطلح "ما بعد العلمانية" إلى المفكر والفيلسوف الألماني "يورغن هابرماس"، ولتلك المرحلة الكثير من الفلاسفة والمنظرين أمثال: خوزيه كازانوفا، وبيتر بيرغر، ورودني ستارك، وكريستينا شتوكل،.... وغيرهم كثير من المفكرين، وعلماء الاجتماع، ورجال الدين، والساسة الغربيين، مما ولَّد احتداماً فكرياً غير مألوف مؤداه: أن العصر العلماني قد أوشك على نهايته، وأن العالم الغربي دخل في واقع جديد، وأنه يذهب بخطى مسرعة نحو التدين.

* في ظل المرحلة الجديدة "ما بعد العلمانية" تظهر المنافسة الشديدة بين النصرانية والإسلام، باعتبار النصرانية هي الدين الرسمي والأكثر شيوعاً في الغرب، والإسلام هو الدين الأكثر قناعة وقابلية وصدقاً لدى الغربيين أنفسهم!

* تعاني النصرانية من شكوك هائلة لدى الغربيين ـ تصل في كثير من الأحيان إلى التكذيب ـ من العامة والعلماء والمفكرين، حول معتقداتها ونصوصها، بسبب مخالفتها الصريحة للعقل، ونتائج العلوم الحديثة، وبالتالي تخسر الكثير من متبعيها يوماً بعد يوم، فالخروج منها إلى الإسلام، أو الإلحاد، أو اللاأدرية، يمثل اليوم واقعاً ملموساً معترفاً به من الجميع.

* التدين الشخصي الفطري "الفردي" لازال موجوداً "ويتنامى" في الأوساط الغربية بشكل كبير، وفي أكثر تلك المجتمعات علمنة!، وهو ما يمثل دافعاً قوياً وتياراً عاماً نحو "ما بعد العلمانية".

* لم يتحول معظم أبناء الغرب إلى المسيحية إلا بشكل "إسمي" فقط، دون أدني قناعة بها! فقد قامت المسيحية الغربية على كنيسة مؤسساتية تدعمها الدولة!، وقد ذكرت جانباً كبيراً من تاريخ شيوع النصرانية في البلدان الأوربية، كلها تدل على ذلك.

* كشف الباحثون الغربيون أن الإسلام في الغرب اليوم، يتمتع بحيوية وانتشار كبيرين، نتيجة لصحة عقائده، وروعة وكمال شرائعه، وصلاحيته لجميع الأجناس والأعراق، والارتباط التاريخي الظاهر بين تطبيق نصوصه وشرائعه من جهة، وبين التطور الحضاري من جهة أخرى.

* على الرغم من تعرض الإسلام لافتراءات وأكاذيب الغربيين – وخاصة المستشرقين – على مدار عدة قرون، وبمساعدة الإعلام الذي شوه صورة الإسلام والمسلمين، إلا أن أقوال المنصفين من العلماء والفلاسفة والمفكرين الغربيين، ونتائج العلوم الحديثة المؤيدة لنصوص الكتاب والسنة؛ تُبَدد شيئاً فشيئاً تلك الصورة المشوهة عن الإسلام والمسلمين.

* تشير الكثير من المراجعات لكتابات وآراء الغربيين إلى تنامي الاعتراف بصحة العقيدة الإسلامية، وسلامة أصولها، وصلاحية الإسلام لقيادة العالم الحديث، وقدرته على حل جميع مشكلاته، التي عجزت النصرانية والمذاهب الوضعية عن حلها.

وأخيراً:

إن ثمة مرحلة جديدة يعيشها الغرب الآن، هي مرحلة "**ما بعد العلمانية**" وباعتراف الكثير من فلاسفتهم ومفكريهم.

وفي المستقبل القريب ستمثل هذه المرحلة منعطفاً كبيراً في المجتمعات الغربية، وتغيراً هائلاً في تكوينها الديني والثقافي والاجتماعي والأخلاقي، وستتغير مبادئ كثيرة وُصفت دائماً بأنها أساسية وثابتة! فضلاً عن تغير حتمي في موازين القوى المعنوية والمادية في تلك المجتمعات.... والله تعالى أعلم.

أهم التوصيات والمقترحات

لا شك أن تلك الورقة الأخيرة من البحث والخاصة بالتوصيات والمقترحات تعتبر بمثابة المتنفس الطبيعي للباحث، للتعبير عما يجول بخاطره من أمنيات ومطالب علمية يتمنى أن تتحقق ولو بصفة جزئية.

والحقيقة أن تلك الموضوعات البحثية المتعلقة بأحداث جديدة آنية على مستوى عالمي أو أممي ـ وخاصة إذا كانت تتعلق بتغير كبير أو انعطاف في بنيتها الدينية أو الثقافية أو الاجتماعية ـ تحتاج إلى كثير من الأبحاث والدراسات على مستويات متعددة، فيجد الباحث أن ثمة توصيات ومقترحات كثيرة تتنافس في مفكرته بقوة لتأخذ مكانها في تلك السطور القليلة في هذه الورقة الأخيرة.

وعلى كل حال فإن موضوعاً بحثياً كموضوعنا "ما بعد العلمانية" يبعث في النفس كثيراً من التوصيات والمقترحات يمكن أن نذكر أهمها كالآتي:

* إجراء بحوث موسعة – على مستوى الماجستير والدكتوراة – عن هذا المجال الجديد، ومن جميع التخصصات المتعلقة به "كعلوم العقيدة والأديان والفلسفات والعلوم الاجتماعية والنفسية"... الخ.

* الاهتمام بدراسة موضوع "ما بعد العلمانية" من زوايا مختلفة، مثل:

– دراسة "ما بعد العلمانية" في كل مجتمع غربي على حدة، مثل دراسته في الولايات المتحدة ـ فرنسا ـ ألمانيا.... الخ.

– دراسة الأسباب المؤدية لنزعة التدين الغربي الحالية.

– دراسة تأثيرات عودة التدين الغربي على الجوانب المختلفة للحياة الغربية.

– دراسة اتجاهات الغربيين الدينية، وقناعتهم بالأفكار الأساسية.

– دراسة العلاقة بين تيار الإلحاد المستقر في المجتمعات الغربية، وتيار التدين الجديد.

– دراسة موقف الغرب الحالي من "النصرانية، والإسلام، والإلحاد، واللاأدارية" وبيان مواطن القوة والضعف في كل منها، وعلاقات التأثير المتبادلة.

– دراسة الرؤى المستقبلية لصيرورة الغرب الدينية والثقافية والاجتماعية... الخ.

– دراسة (ما قبل "ما بعد العلمانية") لتأصيل تلك المرحلة بشكل شامل ومتكامل.

*إرسال بعثات دراسية للغرب لدراسة هذه الموضوعات من جوانبها المختلفة على أرض الواقع.

* إرسال بعثات دعوية لنشر العقيدة الإسلامية، وتصحيح صورة الإسلام المغلوطة في الأوساط الغربية، فلا شك أن الفرصة كبيرة جداً الآن، في ظل حركات التغير الديني الواسعة وحرية الاعتقاد السائدة في الغرب.

* إنشاء مركز كبير "للدراسات الاستغرابية"، يهتم بدراسة الغرب دينياً، وثقافياً، فكرياً، واجتماعياً... الخ. على نسق "الدراسات الاستشراقية".

* إنشاء مركز "للترجمة"، يقوم بترجمات الأعمال العلمية ـ وخاصة الحديثة منها ـ لدى الغرب عموماً، لإثراء الحركة العلمية لدينا، ولمساعدة الباحثين في دراسة الموضوعات المتعلقة بالغرب.

والله تعالى أسأل أن يتقبل مني هذا العمل، وأن يجعله خالصاً لوجهه الكريم، وأن يكتب له القبول، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين، كما أسأله سبحانه أن يغفر لي زلاتي وأخطائي، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

والله تعالى أعلى وأعلم

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

المصادر والمراجع

١) القرآن الكريم.

٢) ابن خلدون، فلسفته الاجتماعية، جوستون بوتول، ترجمة/ غنيم عبدون، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة ١٠٦٤م.

٣) الاتجاهات الفكرية المعاصرة، د/ علي جريشة، دار الوفاء للطباعة والنشر، المنصورة، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م.

٤) الأخلاق الإسلامية، د/ حسن الشرقاوي، مؤسسة مختار للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى.

٥) الأخلاق ومعيارها بين الوضعية والدين، د/ حمدي عبد العال، دار القلم، الكويت، الطبعة الثالثة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م.

٦) الأديان العامة في العالم الحديث، خوزيه كازانوفا، ترجمة/قسم اللغات الحية والترجمة في جامعة البلمند، مكتبة الفكر الجديد، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٥م.

٧) أساليب الغزو الفكري للعالم الإسلامي، د/ علي جريشة، محمد شريف الزئبق، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، ج. م. ع، الطبعة الرابعة ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨م.

٨) الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د/ محمود حمدي زقزوق، دار المعارف، القاهرة ١٩٩٧م.

٩) الاستشراق والمستشرقون، ما لهم وما عليهم، د/ مصطفى السباعي، الطبعة الأولى، دار السلام، القاهرة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

١٠) الإسلام في أربعة عشر قرناً، أنور الجندي، دار الاعتصام، القاهرة ١٠٨١م.

١١) الإسلام في أمريكا، د/ حسان حتحوت وآخرون، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م.

١٢) الإسلام في خندق، د/ مصطفى محمود، دار مصر للطباعة، القاهرة ١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م، طبعة جديدة.
١٣) الإسلام في عيون غربية، بين افتراء الجهلاء وإنصاف العلماء، د/ محمد عمارة، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤٢٧هـ/ ٢٠٠٦م.
١٤) أطلس العالم،إشراف ومراجعة/ إبراهيم حلمي الغوري، الطبعة السادسة، دار الشرق العربي للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة السادسة ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
١٥) أعداء الإسلام ووسائل التضليل، د/ جابر قمحية، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
١٦) الله يتجلى في عصر العلم، تأليف نخبة من العلماء الأمريكان، ترجمة د/ الدمرداش عبد المجيد سرحان، دار القلم، بيروت.
١٧) أوربا والإسلام، د/ عبد الحليم محمود.
١٨) تاريخ الفكر الأوروبي الحديث، رونالد ستورمبرج، ترجمة/ أحمد الشيباني ١٤٠١هـ/١٩٧٧م.
١٩) تاريخ الفلسفة الحديثة، يوسف كرم، دار المعارف، القاهرة، الطبعة السادسة ١٩٧٩م.
٢٠) تاريخ الفلسفة الغربية، برتراند رسل، ترجمة د/ زكي نجيب محمود، مراجعة د/ أحمد أمين، مطابع لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة ١٩٦٧م.
٢١) تاريخ الفلسفة من أقدم عصورها إلى الآن، المؤسسة اليوسفية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٩٢١م.
٢٢) تاريخ النظريات الأخلاقية، وتطبيقاتها العملية، أبو بكر ذكري، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الرابعة ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٥م.
٢٣) ترشيد الفكر الإسلامي، أنور الجندي، دار الاعتصام، القاهرة.

٢٤) تفسير القرآن العظيم، للإمام الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير الدمشقي، ت ٧٧٤هـ، المكتبة التوفيقية، القاهرة.

٢٥) التلخيص الأمين لما جاء في كتاب إظهار الحق حول المسيحية والمسيح، رحمت الله الهندي، مركز الحوار للنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٦) توماس هوبز، فيلسوف العقلانية، د/ إمام عبد الفتاح إمام، دار الثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة ١٩٨٥م

٢٧) ثناء الغربيين على سيد المرسلين (ﷺ)، مواضيع مجمعة من مجلة الحق، السيد محمد بن علوي العيدروسي، دار الضياء للنشر والتوزيع، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٢٨) جدلية العلمنة، العقل والدين، يورغن هابرماس، جوزوف راتسنغر، ترجمة د/ حميد لشهب، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، الحمرا، الكويت، شوران، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠١٣م.

٢٩) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، الإمام/ أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام (ابن تيمية)، تحقيق/ سيد عمران، دار الحديث، القاهرة ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م.

٣٠) الجوانية، أصول عقيدة وفلسفة ثورة، د/ عثمان أمين، دار القلم، القاهرة ١٩٦٤م.

٣١) حكمة الغرب، برتراند رسل، ترجمة د/ فؤاد زكريا، مطابع الرسالة، الكويت ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

٣٢) الدعوة إلى الإسلام، بحث في تاريخ نشر العقيدة الإسلامية، سير توماس أرنولد، ترجمة د/ حسن إبراهيم حسن، د/عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧١م.

٣٣) دفاع عن العقيدة والشريعة ضد مطاعن المستشرقين، الشيخ/ محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة التاسعة ٢٠٠٧م.

٣٤) دوافع الاستشراق وموازين البحث عند المستشرقين بين الماضي والحاضر، ناصر محمد إسماعيل، رسالة ماجستير، جامعة الأزهر، القاهرة.

٣٥) الدين، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان، د/ محمد عبد الله دراز، دار القلم، القاهرة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م.

٣٦) الدين والحضارة الإنسانية، د/ محمد البهي، دار الجمهورية للصحافة ١٤٣٧هـ.

٣٧) الدين والعقلانية، نصوص وسياقات، يورغن هابرماس، ترجمة/ حسن صقر، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، سوريا، الطبعة الأولى ٢٠١٦م.

٣٨) رواد الفلسفة الحديثة، ريتشارد شاخت، ترجمة د/ أحمد حمدي محمود، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٣م.

٣٩) الزمان والأزل، مقال في فلسفة الدين، ولتر ستيس، ترجمة د/ زكريا إبراهيم، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٣م.

٤٠) السيرة النبوية وأوهام المستشرقين، عبد المتعال محمد الجبري، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، مكتبة وهبة، القاهرة.

٤١) صحيح الإمام البخاري، الإمام/ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ت ٢٥٦هـ.

٤٢) صحيح الإمام مسلم، الإمام أبي الحسن، مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيري النيسابوري، ت سنة ٢٦١هـ.

٤٣) صيحة تحذير من دعاة التنصير، الشيخ/محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة الخامسة ٢٠٠٨م.

٤٤) ظلام من الغرب، الشيخ/ محمد الغزالي، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، الطبعة السابعة ٢٠٠٨م.
٤٥) العلمانية تحت المجهر، د/ عبد الوهاب المسيري، د/ عزيز العظمة، دار الفكر، دمشق، سوريا، دار الفكر المعاصر، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠٠م.
٤٦) العلمانية الجزئية والعلمانية الشاملة، د/ عبد الوهاب المسيري، دار الشروق، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
٤٧) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق، د/ محمد البهي، مطابع الجمهورية للصحافة ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.
٤٨) العلم والدين في الفلسفة المعاصرة، إميل بورترو، ترجمة د/ أحمد فؤاد الأهواني، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠١٣م.
٤٩) الغارة الجديدة على الإسلام، د/ محمد عمارة، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ٢٠٠٧م.
٥٠) فتح الباري في شرح صحيح البخاري، للإمام/ أبي الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، ت سنة ٨٥٢هـ، دار مصر للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢١هـ/ ٢٠٠١م.
٥١) فصول في الفلسفة ومذاهبها، الفيلسوف جود ١٨١١- ١٩٥٣م، ترجمة د/ عطية محمد هنا، د/ ماهر كامل، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ٢٠٠٣م.
٥٢) الفكر العربي ومكانه في التاريخ، ديلاس أوليري، ترجمة د/ تمام حسان، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠٠٧م.
٥٣) فلسفة الأخلاق، نشأتها وتطورها، د/ توفيق الطويل، الطبعة الرابعة، القاهرة.
٥٤) الفلسفة الحديثة في الميزان، وتأسيس القواعد من القرآن، د/ محمد بن فتح الله بدران، مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الأولى ١٩٦٨م.

٥٥) فلسفة كانط التربوية، د/ طيبة ماهر وزادة، ترجمة د/ عبد الرحمن العلوي، دار الهادي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٥٦) القرآن الكريم والتوراة والإنجيل والعلم، دراسة الكتب المقدسة في ضوء المعارف الحديثة، د/ موريس بوكاي، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثانية ٢٠٠٤م.
٥٧) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجود التأويل، للإمام أبي القاسم جار الله محمود ابن عمر الزمخشري الخوارزمي، تحقيق/ يوسف الحمادي، مكتبة مصر، القاهرة.
٥٨) ما بعد العلمانية، مقاربة تحليلية نقدية لمنشأ المفهوم ومآلاته، محمود حيدر، المركز الإسلامي للدراسات الاستراتيجية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى ١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م.
٥٩) مجلة الأزهر، عدد ذو القعدة ١٤٤٠هـ/ يوليو ٢٠١٩.
٦٠) مجلة الأزهر، عدد ربيع أول ١٤٣٧هـ – ٢٠١٥/ ٢٠١٦م.
٦١) مجلة المجلة تلخيص كتاب شذرات فلسفية، سيرن كيركجور، ترجمة د/ عبد الرحمن بدوي، عدد ٩٢، سنة ١٩٦٤م.
٦٢) مجلة الاستغراب، دورية فكرية تعني بدراسة الغرب، وفهمه معرفياً ونقدياً. وتم الرجوع للأبحاث التي نشرتها المجلة كالآتي:
* هذا سبيلنا إلى مجتمع عالمي بعد علماني، يورغن هابرماس، ترجمة/ طارق عسيلي.
* فلترقدي بسلام أيتها العلمنة، رودني ستارك، ترجمة/ رامي طوقان.
* ما قبل "ما بعد العلمانية"، د/ حميد لشهب.
* هل دخل العالم مرحلة "ما بعد العلمانية" سيزار ميرليني، ترجمة/ طارق عسيلي.
* ما بعد العلمانية في فكر يورغن هابرماس، آمان زارعي، ترجمة/ أسعد الكعبي.
* اللائيكية والمجتمع ما بعد العلماني، روجيه مونجو، ترجمة/ جمال عمار.

* إعادة النظر في مبدأ اللائيكية الفرنسية، تارين مونت ألفرني، ترجمة/ جمال عمار.
* ما بعد العلمانية وما بعد العلماني، جان مارك لاروش.
* محاولة تعريف بعد العلماني، كريستينا شتوكل، ترجمة/ طارق عسيلي.
* ثورة الفطرة ضد ديكتاتورية العلمانية، كلود أندريه، ترجمة، منار درويش.
* زوال العلمنة عن العالم . بيتر برغر، ترجمة/ رامي طوقان.
* المجتمع ما بعد العلماني، يورغن هابرماس، ترجمة د/ ريم اليوسف.
* العلمانية ليست حلاً، أول ويفر، ترجمة/ طارق عسيلي.

٦٣) المستشرقون، نجيب العقيقي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الخامسة ٢٠٠٦م.

٦٤) مستقبل الطبيعة الإنسانية، نحو نسالة ليبرالية، يورغن هابرماس، ترجمة د/ جورج قتورة، المكتبة الشرقية، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٦م.

٦٥) مصادر دراسة التاريخ الإسلامي، جان سوفاجيه، كلود كاين، ترجمة د/ عبد الستار جلوجي، د/ عبد الوهاب علوب، الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية ١٩٩٧م.

٦٦) المعجم الشامل لمصطلحات الفلسفة، د/ عبد المنعم الحفني، مكتبة مدبولي، القاهرة، الطبعة الثالثة ٢٠٠٠م.

٦٧) المعجم الفلسفي، د/ مراد وهبة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٦م.

٦٨) المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، المطابع الأميرية، القاهرة ١٤٣٢هـ/ ٢٠٠١م.

٦٩) المقدمة، عبد الرحمن بن خلدون، تحقيق د/ حامد أحمد الطاهر، دار الفجر للتراث، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م.

٧٠) مقدمة قصيرة جداً، يورغن هابرماس، تأليف جيمس جوردن، ترجمة/ أحمد محمد الروبي، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى ٢٠١٥م.
٧١) المنهاج، شرح صحيح مسلم بن الحجاج، للإمام محي الدين بن شرف النووي، ت سنة ٦٧٦هـ. دار الحديث، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.
٧٢) موقف المستشرقين من الصحوة الإسلامية، مجدي فتح الباب، دار الروضة، القاهرة ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.
٧٣) نحن وحضارة الغرب، أنور الجندي، دار الاعتصام، القاهرة ١٩٨١م.
٧٤) نقد الحداثة في فكر نيتشه، د/ محمد الشيخ، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٨م.
٧٥) نيتشه، د/ فؤاد زكريا، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٩١م.
٧٦) نيتشه عدو المسيح، د/ يسري إبراهيم، سينا للنشر، القاهرة، الطبعة الأولى.
٧٧) نيتشه نبي فلسفة القوة، كامل عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.
٧٨) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنصارى، الإمام شمس الدين محمد بن أبي بكر بن قيم الجوزية، تحقيق د/ أحمد حجازي السقا، المكتبة القيمة، القاهرة، الطبعة الرابعة ١٤٠٧هـ.
٧٩) هل نسير إلى الهاوية، إدغار موران، ترجمة/ عبد الرحيم حزل، إفريقيا الشرق، المغرب، الدار البيضاء ٢٠١٢م.
٨٠) وليم جيمس، د/ محمد فتحي الشنيطي، مكتبة القاهرة الحديثة، الطبعة الأولى ١٩٥٧م.
٨١) وليم جيمس رائد المذهب البرغماتي، كامل عويضة، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ/١٩٩٣م.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
ملخص البحث	٢٠٢٥
ملخص البحث إنجليزي	٢٠٢٧
المقدمة	٢٠٢٩
الفصل الأول: أسباب نشأة (ما بعد العلمانية)	٢٠٣٧
تمهيد حول مفهوم العلمانية	٢٠٣٩
أسباب نشأة ما بعد العلمانية	٢٠٤٦
الفصل الثاني: (مرحلة ما بعد العلمانية)	٢٠٧٣
تمهيد	٢٠٧٥
الأصول الدينية لدى الغرب	٢٠٧٦
بداية التأريخ لمرحلة (ما بعد العلمانية)	٢٠٨٠
مرحلة (ما بعد العلمانية) في فكر فلاسفتها	٢٠٨١
الفصل الثالث: بين الإسلام والنصرانية في مرحلة (ما بعد العلمانية)	٢١١٧

تمهيد	٢١١٩
أولاً: النصرانية	٢١٢٤
ثانياً: الإسلام	٢١٤٢
خاتمة البحث	٢١٦٧
نتائج البحث	٢١٧٠
التوصيات والمقترحات	٢١٧٣
المراجع والمصادر	٢١٧٦
فهرس الموضوعات	٢١٨٤